

کریستوف کولومب

مارون عبود



کریستوف کولومب

کریستوف کولومب

تألیف
مارون عبود



رقم إيداع ٢٠١٣/١٦٩٦٨

تدمك: ٣ ٤١٤ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	كلمة للمؤلف
٩	المقدمة
١٩	الفصل الأول
٤٥	الفصل الثاني
٦١	الفصل الثالث
٧٧	الفصل الرابع
٩٣	الفصل الخامس

كلمة للمؤلف

لا أذمُّ القصة التي اتخذتها رفيقة لي وعقدنا الخناصر على أن لا يفرقنا سوى الموت؛ فهي عشيقتي ولا أحب سواها، وإن جار علينا الزمان وقضى أن نعيش بعيدَيْن عن رياض الثروة الخصبية، فأنا أحب أن أحيا بروحي ويكفيني ما يحفظ بقاء هذه الروح. أجل، إننا في بلاد ما زال فيها الأملعي غريباً، بيد أنه قد يجد الغريب في مطرحة لذة لا تقل عن لذة الموسرين الغارقين بين حشايا الحرير والديباج، ولولا ذلك لانتحر البؤساء الذين هم السواد الأعظم، لانتحر المساكين، وتقوضت أركان راحة الأغنياء، وأصبحت القصور الشاهقة قاعاً صنفصفاً.

وكما يطمع الناسك المتقشّف بسعادة دائمة بعد عيشته الخشنة هكذا يطمع الأديب بحياة ثانية، وهي حياة الذكر والروح. وعلى هذا الأمل يكتب هذا المنكود الطالع رواية أتعس التعساء «كريستوف كولومب» لنفكر بمصائب هذا الرجل فتصغر مصائبنا، وبضدها تتميز الأشياء.

كتبت هذه الرواية وفكري ميّال إلى الروايات الوطنية، كما صرحت بذلك مراراً، ولكن اعتباري كولومب رجلاً وطنه الإنسانية جمعاء، حملني على تأليف روايته؛ لأنه لم تبق أمة ولم تمتزج بالشعوب التي هي غرس اجتهاد كولومب وبلادها وطنه الحقيقي. فليقرأ كل ناطق بالضاد هذه الرواية ويحيي عظام كولومب العظام، ويذكر القلم الذي كتب تاريخ حياته بالدعاء.

مارون عبود

«جبيل» غرة آذار سنة ١٩١٠

المقدمة

(يظهر الملعب بهيئة دير رايبدا وكولومب وولده في فنائه.)
(كولومب - دياكو (ولده) - الأب جوان - مرتين ألونزو - فرنسوى («قندلفت» خادم))

كريستوف كولومب:

وغير الكذب فيه لا يسود
يضلُّ بدجنه الرأي السديد
تُكَبَّلُها السلاسل والقيودُ
سلاسل دون قسوتها الحديدُ
وفيها يزدهي عُنقٌ وجيدُ
مليكٌ أو غنيٌّ أو عميدُ؟
وأوهام بها عبثُ الوليدُ؟
فمنَ بالمالِ لي منهم يجودُ؟
فيبدو ذلك القطرُ الجديدُ؟
وعني قد تحجبت السعودُ
وأيامُ المني والحظ سودُ
فكيف تبددت تلك الوعودُ؟!
وعريانا، فيا أقوامُ جودوا
وأحزانُ يمازجها الجحودُ

خداعُ كله هذا الوجودُ
وليل المظل ممتدٌ ظليلُ
وتلك عقولُ أهل الأرض طُرًّا
فوا لهفي على من كبَلتْهم
هو التقليد سبَّكها فجاءت
عجيبُ! كيف لم يسمع ندائي
أجنتهم ترى بخزعبلاتٍ
لقد حدثت نفسي باكتشاف
متى تمتدُّ نحوي كفُّ يُسر
لقد قضيتها عشرين عاماً
ونارُ الشيبِ قد لَعبت برأسي
وقد ضاقتُ يدي بل ضاق صدري
لقد أصبحتُ جوعاناً شريداً
حياتي كُلُّها تعبٌ وكدُّ

إذا عُرِضت على الموتى حياتي بعيشٍ مثل عيشي لم يُريدوا

(يركع وينظر إلى السماء.)

إلهي لم يَعدْ لي قَطُّ ملجأ
أنا لا أحتشِي موتي ولكنْ
أموتُ ولستُ أورثه نضارًا
سواك ففيكَ لم تخبِ العبيدُ
وليدي بائسٌ مُضنٌّ شريدُ
ولكنْ يُنمُّه الإرثُ الوحيدُ

إلهي! (وينتخب).

دياكو (الابن):

يا أبي صبرًا فليس الـ
أبي بالله لا تجرحُ فؤادي
بكاءً بمثلِ موقفنا يفيدُ

كولومب:

فقد أنفقتُ ما جمعتُ قدمًا
أنا لا أبتغي مالًا وجاهًا
فإن نُولتُ ما أبغي فإنِّي
بُنَيَّ يحقُّ لي النوحُ المديدُ
وها إنني من الدنيا طريدُ
ولكنْ ما يتمُّ به الوجودُ
أنا هو ذلك الرجلُ السعيدُ

دياكو:

أبي قد جُعتُ

كولومب:

... .. يا وُلدي اصطبارًا

دياكو:

فَمَا صَبِرِي وَبِي جَوْعٌ شَدِيدٌ؟!

كولومب:

تَجَلَّدْ يَا بَنِيَّ فَعَيْنُ رَبِّي تَرَكَ وَفِي تَجَلُّدِنَا نَسْوُدُ
وَمَنْ كَانَ الزَّمَانُ لَهُ عَدُوًّا فَإِنَّ الصَّبْرَ مَعْقِلُهُ الْوَطِيدُ
وَلَكِنْ لَا ففوزِي لَيْسَ يُرْجَى فَشَطْرَ غَدٍ بِهِ الْفِشْلُ الْعَتِيدُ

آه، ما هذه التعاسة وما هذا الشقاء يا كولومب؟! كاد يقتلني الجوع ويخنقني
الظماً.

فِيَا سَاكِنِي دِيرِ الْفَرَنْسِيْسِ رَحْمَةً بِكُولُومْبٍ، مَنْ يَرْحَمُ أَحَاَ الرَّبِّ يُرْحَمُ
أَعْنَدَكُمْ مَا يَقْتُلُ الْجَوْعَ فِي الْحَشَا وَمَا يَطْفِيءُ النَّيْرَانَ فِي كَبِدِ الظَّمِي؟

ما هذه الأطمار البالية، إنني لأخجل أن أظهر فيها:

فَصَاخَةَ سَحْبَانَ وَخَطَ ابْنِ مَقْلَةٍ وَحِكْمَةَ لِقْمَانَ وَزَهْدَ ابْنِ أَدْهَمِ
إِذَا اجْتَمَعَتْ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءُ مَفْلَسٌ وَنَادَاَ عَلَيْهِ لَا يُبَاعُ بِدَرْهَمِ

(يتنهد) ويلاه! ما العمل؟ أي ولدي الصغير، تقدم واقرع باب هذا الدير، فقد
عهدت الرهبان الأتقياء يحبون الفقير، ويعطفون على البائس المسكين.

(دياكو يتقدم متلفتاً تارة إلى أبيه وتارة إلى الباب.)

كولومب: تقدم ولا تخف هذا الباب الحديدي، فصوت المسكين يخرق الحديد.
دياكو (يقرع الباب مراراً ويتنصت): أسمع أصواتاً رخيمة يا أبي.

كولومب: إنها لترانيم سماوية يا ولدي تصعد على أجنحة الملائكة وترتمي على أقدام العرش الإلهي تستغفر الله عن جرائم الإنسانية وفضائع البشرية. ما أجمل هذه الحياة الهادئة، وأقرب سكان هذا المكان من باب الملكوت! اركع يا بني لنصلي ونشارك الرهبان في صلاتهم، ما أعذب الصلاة! فهي خير تعزية للمرء في ضيقته، ومهما أظلمت الدنيا بوجه الإنسان فعند ارتفاع بصره إلى السماء يلوح له نور مقدس يمزق هذه الدياجي (يركعان).

(بعد صمت قليل يسمع صوت داخلي يقول: من يقرع الباب؟)

كولومب: فقير، مسكين، طرحته الفاقة على أبوابكم أيها الأتقياء فافتحوها له فتح الله بوجهكم باب ملكوته.

(يُفتح الباب ويخرج منه الأب جوان وفرنسوى ومرتين ألونزو فينهض مسلماً ثم يأمر ولده قائلاً):

كولومب: حَيَّ يا ابني آباءنا الرهبان فقد طفنا البلاد ولم يرثِ لحالنا أحد ولم يقابلنا بشرٌ بهذه البشاشة.

فرنسوى: من تكون أيها البائس ومن أي بلد أنت؟

كولومب: أنا كريستوف كولومب مجنون القرن الرابع عشر.

جوان (على حدة): قد سمعت قبل الآن بهذا الاسم.

كولومب: أنا الرجل الذي فر من سريره إلى فم المخاطر فركب البحار وذلّل الأمواج وطاف الأقطار والأمصار مدفوعاً بشقائه وتعاسته، وما زال يتقلب من حال إلى حال حتى أصبح كما تراه يلتمس الكِسْر ليقنات بها ويبسط يده على الطرق مستعطفًا أبناء السبيل.

فرنسوى: يظهر أيها الرجل أن في حياتك سرًّا من الأسرار.

كولومب: نعم، وأي سر لم يكن في حياتي؟! تعاسة، فقر، يأس، مخاطر، كل هذا

رأيتَه في حياتي ولكنني لم أزل أعلل النفس بالأمال أرقبها.

جوان: من يصبر إلى المنتهى يخلص.

كولومب: آه يا أبت الفاضل! لو بسطت لك تاريخ حياتي لرأيت أنني ذقت من البلايا ما لم يدقهُ الشهداء، بَيِّدَ أن عزمي لم يخر، وهمتي البعيدة لم تشعب من مُعَاركة الأيام، وقد شاب شعري من كُثْرٍ ما رأيت من الأهوال، ولكن عزمتي لم تزل شديدة المراس، وقناة همتي لا تلين للغامزين.

فرنسوى:

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضِ طَلَبَ الْكَرَّ وَحَدَهُ وَالنَّزَالَا

إنك مهذار أيها الرجل، وحديثك يدل على اختلال في دماغك، أملك أنت أسقطك الزمان عن عرشك وحرطم على أقدامك تيجانك حتى تدعي هذه الدعوى وتفتخر كل هذا الافتخار، أم حسبتنا قومًا بعيدين عن ضوضاء العالم نصدق كل ما ينسج لنا على منوال الخديعة والهذيان؟

كولومب: أفي كل مكان يقوم بوجهي أخصام؟! هو ذا عدو جديد تحت سماء الدير النقية. آه ما أشقاك يا كولومب!

فرنسوى: نحن لا نعادي ولا نكره أحدًا؛ ففاديننا علمنا محبة الأعداء، ولكننا نكره الرذيلة لا الإنسان، فقل الصدق ولك منا فوق ما ترجو.

جوان: ما لك وما له يا فرنسوى؟ دعه يقص علينا تاريخ حياته.

فرنسوى: وأي عبرة وذكرى في تاريخ حياة شريد طريد مجنون فقير يتوهم أنه علامة عصره وفيلسوف دهره؟

جوان: ابسط يا كولومب قضيتك مع الزمان فكلنا على الدهر أنصار وأعوان.

كولومب: يعزُّ عليَّ يا أبت أن أعيد نظري في الصفحات المنطوية من سجل حياتي؛ فهي تستنزف عبراتي وتؤثِّر في عواطفك الشريفة، فدعنا فالحديث شجون.

فرنسوى: ابتداءً الخلط يهيب الأذهان لسماع أكاذيبه، آه ما أقدر هذا الصنف من البشر على استمالة القلوب!

جوان: هات الحديث فلعل عندي باب فرج أفتحه بوجهك.

كولومب: أبت، ولدت سنة ١٤٣٦ في مدينة جانوا من أعمال إيطاليا، ومن بزوغ فجر صباي ملت إلى فن الجغرافية والرياضيات، وعشقت الملاحة مهنة والدي، ولم أكن أكره غير البطالة التي تفسد الشبيبة وتقودها إلى حضيض الفقر والهوان. وإذا كان أبي دومينيك كولومب مشهورًا بركوب الأبحار أخذ يدربني ويعلمني مهنته، ثم أرسلني إلى كلية بافيا حيث أتقنت علم الفلك والجغرافية والهندسة، فحضت البحار في عمر البدر ليلة تمامه، وكان إعجاب الناس فيّ شديدًا والثناء ينهال عليّ من كل جانب. جُلت أول الأمر في البحر وأخذت أسعى بتوسيع دائرة السفر فاستخدمت في سفينة نسيب لي كانت مسافرة في الأوقيانوس الشمالي، وكنت أطارد السفن الفينيسانية حتى وقعت في لجج الأخطار مرات عديدة، وقد اشتد القتال مرة بيني وبين أصحاب تلك السفن فاضطرت النار في سفينتي وسفينة أخرى من سفنهم فارتبكوا في أمرهم، أما أنا فتمسكت بجذع من الخشب حتى قادتني يد العناية إلى شواطئ مملكة البرتغال، وهناك في تلك الأقطار بقيت في حالة الخطر من جرّاء التعب أيامًا عديدة، ولما عوفيت سرت إلى ليزبونه عاصمة تلك المملكة، وهناك عرفت بحارتها أحذق بحارة العالم والساعين في اكتشاف طريق جديدة تؤدي إلى الهند الغربي، وعرفت أيضًا في ليزبونه سيدة شريفة كريمة الشيفاليه برتولماوس، واقترنت بها فرزقني الله منها هذا الولد الذي تراه أمامك في جزيرة بورتوسانتو.

(هنا يتنهد ويلتفت بولده التفاتة مملوءة حنانًا وشفقة ويتوقف عن الحديث.)

جوان: لا تقطع الحديث يا كولومب بالله عليك.

كولومب: وبقيت في تلك الجزيرة سنوات عديدة أتجول على شطوط أفريقيا وفي جزر كاناريس، وكنت دائمًا أبحث وأفكر في طريق بحرية يدار بها حول أفريقيا، وأقول في نفسي: أليست الأرض كالكرة المستديرة؟ أيعقل أن تكون الجهة الثانية من الأرض كلها مياهاً؟ لا، إذن فلا بدّ من اكتشاف شيء جديد، وقد وطّدت عزيمتي ما قصّه عليّ أحد بحارة البرتغال وهو أنه رأى على وجه المياه أخشابًا صنع يد بشرية قذفتها الرياح في الأوقيانوس الأتلانتيك، ووجدوا أيضًا في جزائر أسورس «ما بين أوروبا وأميركا» في البحر الأتلانتيكي جثتين غريبتى البنية، كل هذا يا أبت حملني على الجزم بوجود عالمٍ جديدٍ فحدّثت نفسي باكتشافه.

جوان (إلى فرنسوى): يا له من ذكي متوقد الذهن! سيكون من أعظم خدام الإنسانية وأكبر نصراء الصليب.

فرنسوى: والله درك من ساذج مثله تعتقد ما يعتقد، ولا بدع فشيبه الشكل منجذب إليه! (إلى كولومب) دعنا يا رجل من هذه الأضاليل.

(كولومب يلتفت بفرنسوى متمرماً).

جوان (إلى فرنسوى): اخرج من هنا أيها الجاهل.

فرنسوى: وابق أنت هنا وابن مع أخيك في الجنون القصور في إسبانيا (يقول هذا ويخرج ضاحكاً).

مرتين: قد استرحنا من فلسفته، تمّ حديثك يا كولومب.

كولومب: عزمت عزمًا وطيدًا على اكتشاف العالم الجديد، ولكن ضيق ذات يدي كبّلي بقيود ثقيلة فعزمت على مفاتحة دولتي بذلك، وعرضت مشروعى على مجلس جانوا فرفض الطلب ساخرًا بي سخرية هذا الراهب. فتركت بلادي قائلًا: لا يُكرّم نبي في مدينته. وعدت إلى ليزبونيه وعرضت على ملك البرتغال أفكاري، وطلبت أن يمد لي يد المساعدة فلم يرفض، وبعد قليل أُلّف لجنة علمية طرحت على مائدتها آرائي فقررت أنها آراء فاسدة مزيفة فلم يقنع بذلك، وعيّن لجنة ثانية فأيدت رأي الأولى، وإذ رأت الملك معتقدًا اعتقادي طلبت منه أن يرسل قبطانًا من قبله لاكتشاف ذلك العالم الجديد، فأرسل سفينتين تحت رئاسة أحذق البحّارة، فبعدهما سافروا مدة قليلة عادوا يقولون إن مشروعى وهم ومحال؛ فتركت تلك البلاد قاصدًا فينيسيا الجمهورية طالبًا منها المدد فلم أظفر بغير الخيبة، والآن أنا كما تراني قد أنفقت كل شيء ولم أعد أملك شروى نقير، ولو لم تأووني هذه الليلة لكنت هلكت جوعًا.

جوان: مسكين أنت يا كولومب! أسأل الله أن يفرّج أزمته، ويريك جزاء أتعابك سعادة الدارين.

كولومب: أنا لا أطلب يا أبي غير التوصل إلى العالم الجديد، فإما أن نزيد مدنية أو نمدّن أولئك الناس التائهين في بيداء الهمجية. طفت كالبيّساء من بلاد إلى بلاد حتى وصلت إسبانيا، هذه المملكة الواسعة المتراخية الأطراف، كما أنني أرسلت أخي برتلماوس ورفيقي في هذا الجهاد إلى جلاله هنري السابع ملك إنكلترة، فعسى الله أن يُقيض لنا يدًا كريمة تجري منها أنهار الكرم والجود وتساعدنا على هذا المشروع العظيم.

جوان: أنا من رأيك يا كولومب، ولو لم أكن راهبًا لكنت أطلب الانتظام في سلك بحريّتك الذين يركبون ذلك المركب الخشن في سبيل خدمة الإنسانية، أه يا ليتني أملك شيئًا من المال لأضحّيه في سبيل هذه الخدمة الجُليّ ولكن:

لا خَيلَ عندَكَ تُهدِيها ولا مَالٌ فَلَيْسَعِدِ النُّطْقُ إن لم تسعِدِ الحالُ

سأكتب لك إلى مرشد الملكة إيزابلا فهو صديقي الحميم وسيكون لك أكبر مساعد أمامها، إن ملكتنا يا كولومب تحب العلماء وتعتبر الأدمغة الكبيرة، فأسرع إليها بجرأة ولا تخف، فلنشرع الآن بالكتابة.

مرتين: ما أجمل هذا الاجتماع بعلامة مثلك يا كولومب! إن خدمتك ستكون باهرة للبشرية وسيدكرها التاريخ بالإعجاب والتعظيم إذا خدمك الحظ، ولكن يا للأسف! فالفلاسفة والأدباء والعلماء والشعراء أشقياء في كل زمان ومكان، طالع التاريخ فتجد لك أعظم تعزية على فقرك وشقائك، أفلاطون وسقراط وديوجين عاشوا في الفاقة وماتوا في الفقر، ولكن أملي وطيد بالعبادة الإلهية فهي تمهد سبيلك وتعدّ طريقك فلا تعثر بحجرٍ رجلك. سأرافقك يا كولومب إذا توفقت إلى السفر، وأضحّي ما تملكه يدي في سبيل هذه الخدمة الأدبية. إن الأغنياء يعشقون المال أما أنا فلا، هاك يا كولومب هذه الدراهم فهي تقضي حاجات سفرك.

كولومب: شكراً لك أيها المولى على هذا الجود، وأراني الله مثلك قوماً عديدين يعتبرون الآداب والأدباء ويجلبون العلم والعلماء.

جوان: وإليك الكتاب يا كولومب، عجل بالسفر إلى مدينة كردو حيث تقابل هذا السيد العلامة مرشد الملكة وتدفع الرسالة إليه، أمّا ولدك دياكو فأبقه هنا ما بيننا وثق أنه سيصادف من إخوتي الرهبان ومني حنان الأم وشفقة الأب.

كولومب (يتناول الرسالة ويلتفت إلى ولده قائلاً): تعال يا مهجتي أطبع على صفحات وجهك قبلات الحنان والمحبة الوالدية، سأتركك هنا ولكن إلى أجل غير بعيد؛ لأن الأمل بالنجاح يلوح لي كخيوط من نور في أحشاء ظلمة مُدلهمّة.

صَافَتْ وَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حُلُقَاتُهَا فُرَجَتْ وَكُنْتُ أَظْنُهَا لَا تُفْرَجُ

اقترب مني يا حبيبي فأضمك إلى صدري ونقتبل كلانا بركة الأب جوان.

المقدمة

(كولومب راعع وابنه واقف قربه يقبله، والأب جوان رافع يده يباركهما ومرتين
ينظر إليهما متأثراً.)

(وهكذا يطبق الستار.)

الفصل الأول

القسم الأول

(يظهر الملعب بهيئة قصر الملك فردينان.)

المشهد الأول

(الأسقف مرشد الملكة - جنود زاهبة إلى الحرب)

مرشد الملكة:

واستبدت رماحنا الخطيئة
بابتهاج لمجزر البشريه
حرب واصلوا الأعداء نار المنيه
كل يوم شقا نعاجي البريه
ض سلام وراحة أبديه
ذاك صوت المسيح في الناصريه
واتركوا الحرب فهي شر بليه
ها شقاء الملوك ثم الرعيه
رافة في جبلتكم التربيه
يُشترى بدماء شعب زكيه

ظلمتنا سيوفنا اليمنيه
ومشى الناس للحروب الوقا
فكان المسيح قد قال جبوا ال
ليت عيني تعمي ولم أر فيها
من زمان صاح الملاك على الأز
في أورشليم قد علا الأمس صوت
قال عيشوا براحه وسلام
لعن الله ساحه الحرب كم في
رافع السماوات دون عماد
يطمع المالكون في شبر أرض

وَيَقُولُونَ بِالْعَدَالَةِ نَبِغِي حَقًّا فاعدلوا ملوك البريه

(يسير عدة خطوات متفكرًا والحزن بادٍ على وجهه وفي حركاته، ثم تعزف الموسيقى من الداخل بنشيد الدعاء الملكي ثلاث مرات ويهتف الجنود بآخر كل مرة: «فليحيَ الملك» ثم يصرخ الجنود: إلى الحرب إلى الأندلس.)

المرشد:

وإلى الشَّرِّ إن صدقتم قُولوا ليس في الحربِ غير شر رزيَّة
أمدى الدهرِ يشتكي السيفُ جوعًا أفما ترتوي القنا السمهرية؟
يا صليبَ المسيح يا علمَ السلِّ م ومُحيي الرجاء في البشرية
أرم صلحًا بين الملوكِ ليلقى شعبك اليومَ أطيب الأمنية

(يسمع ضجيج داخلي فيسكت المرشد ويقف مبهورًا إذ تدخل الجنود مارة في الملعب أزواجًا بخطى عسكرية تتقدمهم الموسيقى وهم ينشدون هذا النشيد الموقع على لحن الجزائر المشهور.)

(نشيد):

بشري لنا، ولى العنا، نلنا المنى، في بطشنا، يوم الطعان
أسيافنا، لا تنتني، وقت التفاني، بحب الأوطان
صاح المدد، خصم ألد، حتى ارتعد، منا الجلد
ما أحل الحروب، إذ تنفي الكروب، والأعدا تذوب
فاشحذوا البيض الرقاق، وأسرجوا الخيل العتاق، واهتفوا: «فليحيَ فردينان»

المرشد (بعد زهاب كل الجنود وسكوت الموسيقى يقف ناظرًا إلى الباب الذي خرجوا منه ثم يقول):

يا جنودَ الإسبانِ للنصرِ سيري واحمدي الله بُكرةً وعشيَّة

وإذا ما قضيت في الحربِ قولي قتلتنا المحبةً الوطنيَّة

فضائع وأثام، بلايا ورزايا ترافق الإنسانية من المهدي. ما زال جو السلام مكفهراً مظلماً ونهار القناعة تُغشيه غيوم المطامع. ملوك وسلطين يقتتلون على حطام الدنيا اقتتال الأساد في الغابات، يجلسون على الأسرَّة والعروش ويجنِّدون من رعيتهم جنوداً جرَّارة يطرحونها في مهاوي الشقاء في البلاد البعيدة؛ فيعكرون صفاء العيال الصغيرة، ويقتلون راحة المساكين بأيديهم القاسية، أي أشعيا النبي، متى تأتي الساعة التي تنبأت عنها، الساعة التي تصب فيها السيوف وألات الحرب سكباً ومعاول لحراثة الأرض؟ أيها السيد الناصري، يا رسول السلام ومنقذ آدم من رق عبودية الشيطان، متى تنقذ الشعوب من هذه الشرور والويلات الدائمة؟ منذ أربعة عشر جيلاً نودي على الأرض السلام وإلى الآن لم تزل الحروب مشمرة عن ساقها، لم يزل ذلك الغول الهائل يبتلع الشبيبة ويطحن عظامها بأنياب الزرق، متى تنطفئ نار المطامع في الصدور فيقف كل ملك عند حده، ولا تكون للقوة هذه السيادة الحاضرة؟ أه إن ذلك لبعيد!

سيري بأمان أيتها الجنود الإسبانية إلى بلاد الأندلس إلى الموت تحت العلم الإسباني القاهر، فأنا أسأل الله أن يرقق قلب الملكين المتحاربين فيروا أن في السكون خير بقاء لعروشهما وتيجانهما، ماذا تفيدنا الأندلس إذا خسرنا من رجالنا عدداً غفيراً؟ وماذا تفيد سلطان غرناطة مطامعُ الغريبة وعناده الشديد إذا هلك جيشه وذهب من رعيته ألوف في ألوف؟ إن الأزمة شديدة فأنقذ يا رباه المملكة الإسبانية، تولى الملك فرديناند بنفسه قيادة الجيش فمن يضمن له العود بالسلامة؟ اكلاه يا رب بعين رحمتك، واسكب على قلب الملكة الملتهب ماء العزاء والصبر، أي إيزابلا ابنتي الروحية، إنني أصلي لأجلك ولأجل مملكتك ليصونها الله من يد العدو ويجعل أسوارها من حديد فلا تززعها أيدي الطامعين وترتد الأبصار عنها كليله.

(يتمشى بسكون وتأمل.)

كريستوف كولومب

المشهد الثاني

(المرشد وكولومب)

كولومب (يدخل): تحية وسلام أيها السيد الجليل (يركع ويقبّل يده).

المرشد (على حدة): رباه ماذا جرى؟! ماذا يريد هذا الغريب؟!

كولومب: سيدي، أحمل إليك هذا الكتاب من الأب جوان راهب دير رابيدا صديقك الحميم.

المرشد: الآن ارتاح خاطري، هات الكتاب أيها الرسول لنرى ماذا يريد صديقنا الفاضل (يدفع إليه الكتاب فيقرؤه وكولومب ينظر إليه وإن ينتهي يقول): آه ما أعذب راحتك يا صديقي جوان! إنك بعيد عن ضوضاء العالم، لا تقلق خاطرك مشاغل البشر التي تلقي على منكبي أحمالاً ثقيلة، أنت تحت سماء الدير بمعزل عن معترك السياسة ولذلك تحسب كل شيء سهل المنال، لا تعلم أن الظروف تجعل المرء عبدًا لها، لبيتك تحضر وتشاهد بأمر عينك قلق هذه المملكة لما كنت ترسل إلينا مثل هذا الرجل الذي تحدثه نفسه باكتشاف عالم جديد.

كولومب: مولاي، لا بل أنا متأكد من ذلك وكأنتني أرى الآن أمامي من وراء البحار الهائلة إخواننا في الإنسانية الذين وقف بيننا وبينهم كرور الأيام والأعوام.

المرشد: حقق الله آمالك يا ولدي، ولكن الأجدر بنا أن ندع أولئك الناس في وحدتهم؛ فخير لنا ألا نعرفهم لئلا نعلمهم من ضروب الشقاء ما لم يكن عندهم.

كولومب: أتجهل يا سيدي أن هذا العالم الجديد مما يزيد مملكة إسبانيا قوة وبطشًا وغنى وافراً وجاهًا طويلًا عريضًا؟

المرشد: دعنا يا بني من هذه التعللات والأمانى فما يتفياً ظلال العلم الإسباني كفيه، دعنا من العالم الجديد لئلا يزيد شراهة الملوك ويدفعهم إلى الحرب فلا تكسب الإنسانية غير ويل وشقاء، ألا ترى كيف أن الحرب مشمرة عن ساقها في بلاد الأندلس حتى جبلت تراب تلك الأرض بدماء البشر، وكم ذهب من النفوس في تلك المجزرة الهائلة التي سد أنينها مسامع الفضاء وعلا صراخ الضحايا إلى السبع الطباقي؟

كولومب: سمعت بذلك وقد مسَّ قلبي منظر الجنود الذاهبين إلى الحرب والابتسامة على أفواههم وهم ينادون: فليحي الوطن! فليعيش الملك!

المرشد: إذن لا تعطل نفسك بمقابلة الملكة فهي مشتغلة عن كل شيء بإعداد المهمات والذخائر اللازمة، هي تنظر إلى ما وراء الغيب نظرة الأمل ممزوجة بالخوف، تنظر إلى جيوش الأعداء الواثبة كالآساد في مرابضها وهي تود أن تقبض على ناصية الملكة الإسبانية لو قدرت، أه من الطمع!

كولومب: حقق الله آمال هذه الملكة العظيمة، ولكن أملي وطيد بأنها تتنازل إلى مقابلتي رغمًا عما يشغلها في الأحوال الحاضرة؛ فقد سمعت عنها أنها تحب العلماء وتصبو إلى الأفكار الجديدة.

المرشد: إنها لذلك أيها الرجل وأنا أيضًا أحب العلم الذي يقرب الناس من الدين، ولكن أفكارها في أشد الاضطراب ومن العبث يا ولدي أن نباحثها في هذا الشأن فلربما تغضب وعلى الفور ترفض.

كولومب: إن أملي لكبير فيك أيها السيد النبيل بعدما عرفت من صفاتك العالية من صديقك جوان راهب دير رابيدا، ولهذا أراني أتجاسر وأسألك أن تستأذن لي بالدخول عليها.

المرشد: إن هذا لا يكون في هذه الأزمة الحرجة، فلا تعطل نفسك بالمحال، ولا ريب عندي أنك إذا حظيت بمقابلتها لا تفلح، وذلك بدخولك الأمور من غير أبوابها فاصبر يا ابني فالأمور مرهونة بأوقاتها.

كولومب: ساعدني أيها السيد الخطير والله من وراء أعمالك، مهد سبيلي ليحفظ لك التاريخ أعظم ذكر وأطيب ثناء، اعضدني ناشدتك الله.

المرشد: سأساعدك إنما عليك بالصبر.

كولومب: مولاي، خير البر عاجله.

المرشد: قد أزعجتني أيها الرجل.

كولومب: إزعاج الابن لأبيه.

المرشد: أتطمع باكتشاف عالم جديد وقد سبقك قوم كثيرون علماء فلاسفة جغرافيون مهندسون ولم يحلموا بهذا الحلم الجديد، حقيقة إن آراء الإنسان ومطامعه لبعيدة غريبة، ولكننا إذا سلّمنا بما تقول لا نرضى أن تقابل الملكة الآن لئلا تعود بالفشل، فعد من حيث أتيت وادعُ للملكة بالنصر، وأنا أسأل الله أن يوفقك إلى ما به الخير.

كولومب: سيدي! طفت العالم ولم يسمع ندائي أحد، ناشدتك الله خذ بيدي.
المرشد: لو تنسم أحد في كلامك الصدق لسمعه ووعاه، فاذهب عنا الآن وعد عن
هذا الإلحاح، إنه لضرب من الجنون.

كولومب: جنون، جنون، كلمة لم أزل أسمعها منذ ثماني عشرة سنة، أه ما أصعب
ولادة الحقائق الجديدة! فإنها لا تبصر النور ما لم تتمخض بها الأجيال والدهور.
المرشد: لا تقل الحقائق يا رجل، بل قل الأمانى والأحلام.
كولومب: حقائق يا سيدي حقائق.

المرشد: قد ضاق صدري، حقائق ولا بأس، وثق أنها لو كانت الجواهر لمقاة على
مسافة يومين أو ثلاثة وقيل للملكة أن تعيرها جانباً من اهتماماتها لما قبلت في الحالة
الحاضرة؛ فإن الأهم أدعى للاهتمام منه من المهم، أفهمت ما أقول لك؟
كولومب (يهم بالخروج): زودني بركتك وادع لي بالتوفيق.
المرشد: أسأل الله أن يوفقك يا بني.

المشهد الثالث

(الكردينال - المرشد - ألونزو)

المرشد: يزعم المسكين كولومب أنه سيخدم الإنسانية وسينقذ عالمًا جديدًا من رق
الهمجية، وقد ذهب هذا المذهب غيره من الجغرافيين والملاحين كما يزعم المتفلسفون
بوجود عالم ثانٍ في المريخ. أه ما أوسع أفكار هذه الجبلية الترابية منذ البدء وهم راكبون
سفينتهم المحطمة يمخرون بها بحر الفلسفة الهائج وإلى الآن لم يهتدوا إلى ميناء
الخلاص والسلام! أرض جديدة؟ هذا فكر غريب، وإني لأخجل أن أفتح الناس بهذا
الفكر، خرج كولومب ولا أدري إلى أين ذهب، لا ريب أنه سيفتح بهذا الرأي غيري من
البلاط الملوكي، بيد أنني سأجتهد في البحث في هذه المسألة المهمة التي لم تخطر لي ببال
مع كل خبرتي الواسعة بفن الجغرافية وعلم الفلك، ولا يبعد أن تكون أعمال الله عجيبة.
أسمع وقع أقدام، من القادم يا ترى؟ ذلك كولومب؟ لا هذا نيافة الكردينال وصديقنا
ألونزو (يدخل الكردينال) سلام أيها السيد الجليل (يركع ويقبّل يده).

الكردينال: كيف حالك أيها الأخ المحترم؟

المُرشد: أطلب بركة سيدي ودعاءه.

الكردينال: هل سمعت بآراء الرجل الإيطالي وقوله بوجود عالم جديد؟

المُرشد: وهل بلغت مسامح نيافتكم؟ وكيف رأيتهَا؟

الكردينال: نعم، وقد رأيتهَا قريبة التصديق.

المُرشد (على حدة): عجبًا للكردينال من هذا الرأي! أنت تصدق يا سيدي؟ إن

المسألة خطيرة ولا تظهر بغير البحث المدقق وسنرى رأي العلماء بها، ولكنني أستبعد أن تكون.

الكردينال: ولماذا تعجب يا أخي؟ ألم تكن كل الأفكار الجديدة مثلها عرضةً للهزء

والسخرية، ومع ذلك فإننا اليوم نسخر بمن لم يصدقها؟

ألونزو: نعم، وأين الغرابة في رأي كولومب، ألا يحتمل أن وراء هذا البحر الطويل

العريض بلاد مثل هذه البلاد؟ ما زلنا نرى الجزائر التي تكتنفها البحار من كل جهة،

فكيف نرفض رأي كولومب يا ترى؟

المُرشد: أنا لا أصدق ما تصدقون ولا أستطيع أن أسلم بذلك أبدًا ما لم يؤيد

بالبراهين، فاعذروني على قصر معرفتي.

الكردينال: إننا نعذرك، ولكننا لا نسألك عما أخطأت به ضد كولومب.

المُرشد: وبماذا أخطأت إليه؟

الكردينال: لم تدعه يقابل الملكة.

المُرشد: فإذن أخبركم كل ما جرى بيني وبينه؟

الكردينال: نعم، وهو يتدمر كثيرًا من سيادتك ولم يكن ينتظر أن يصادف لديك

ما صادفه؛ لأن شهرتك العلمية جرّأته على الطمع بحلمك.

المُرشد: وأنا — شفقةً على أماله أن تتبدد كالهباء المنثور — لم أسمح له بمقابلتها

في هذه الأزمة الحرجة؛ لأنني واثق بأنه لا يعود بغير الخيبة والفشل.

ألونزو: سيدي! ها الملك والملكة مقبلان.

المشهد الرابع

(الملك - الكردينال - المرشد - ألونزو - أنتوان - حاجبان)

الملك: بماذا تتحدثان؟ فإنني أرى فرنندو بارتباك.

المرشد: نعم يا سيدي فإن آراء الإيطالي الجديدة غريبة.

الملك: ومن هو هذا الإيطالي؟

الكردينال: هو كريستوف كولومب يا سيدي.

الملك: وبأي آراء جديدة أتى؟

الكردينال: يقول إن قسمًا من الأرض لم يزل مجهولاً.

ألونزو: وبأن تلك الأرض إذا اكتشفت ستزيد إسبانيا رفعة ومجدًا وعلاءً.

الملك: ما رأيك يا أنتوان؟

أنتوان: حديث خرافة يا أمّ عمر، اسمع يا مولاي واضحك.

الملك: إن هذا الكلام المجرد لا يُعوّل عليه، أما إذا أسنده بالبرهان نستطيع أن نحكم

بصحته أو فساده.

أنتوان: إن الرجل مجنون يا مولاي، إذا سمعت حديثه تظنه يكلمك بالهندية، وإذا

تنازلت لمقابلته فسترى.

الكردينال: وهو قد طلب مني مرارًا أن أمهد له سبيل التشرف بالمثل أمام

جلالتكم، أفيا أمر بذلك مولاي؟

الملك: نعم نأمر، لا بأس من مقابلته ففي الزوايا خبايا، اذهب أيها الحاجب وادعُ

كولومب إلى مقابلة مولاك.

الحاجب: سمعًا وطاعةً يا مولاي.

الملك: سنرى هذا الرجل ونسمع ما عنده من الأفكار، ولا يبعد أن يكون صاحب

مقدرة عقلية وقد تصدق مزاعمه، فما ينبت النرجس إلا من بصل.

المرشد: ما الأخبار الجديدة؟

الملك: أخبار لا تسرك، أخبار الحرب يا فرنندو.

المرشد (يهزُّ رأسه): ما أشر الحرب!

المشهد الخامس

(المذكورون وكولومب)

الحاجب: مولاي، بالباب كريستوف كولومب، أتأمر بدخوله الآن؟
الملك: قل له يدخل.

أنتوان: ستسمع من مضحكاته ما يجعلك تأسف عليه.

كولومب: سلام عليك أيها الملك العظيم.

الملك: أأنت تزعم أن في الدنيا عالماً مجهولاً وتقدر على اكتشافه؟

كولومب: نعم مولاي، وقد عرضت أفكارى على عدة ممالك، ولم يسمع أحد طلبى، وإذا أمرت جلالتك فبراهينى عديدة وحجتي قوية دامغة.

أنتوان (يهزُّ رأسه): آه ما أشد عناد هذا الرجل!

الملك: قد كنت أحب سماع براهينك ولكن الوقت لا يساعدني الآن فسأجتمع بك مرة أخرى في غرفتي الخاصة وندرس المسألة درساً مدققاً (إلى المرشد) اجمع يا فرنندو علماء الفلك في مملكتي، وتباحثوا مع كولومب في هذه المسألة، فالحقيقة بنت البحث.

المرشد: أمرك يا مولاي، وفي أي مكان ترخص باجتماعهم.

الملك: في دير مار إسطفانوس للرهبان الدومينيكان، وأنت يا كولومب، سأمدُّ لك يد المساعدة عن قريب كيف كان الأمر.

كولومب: شكرًا لك يا مولاي (ويذهب).

المشهد السادس

(الملك - الكردينال - ألونزو - ستنجل - حاجب)

الكردينال: إن هذا الفكر يا سيدي الملك لمن أسمى الأفكار، آه ما أجلُّ هذا الفخر الذي ستكتسبه مملكتنا إذا تم نجاح هذا المشروع الخطير، فسيزداد عدد المسيحيين إن شاء الله، إننا لا نجهل خطر هذا العمل، وها أنا متصور أمام عيني العقبات التي تقف

في سبيله كالجبال الشماء، فخرينة الملكة مهزولة بداعي حرب الأندلس، ولا أدري ما يكون من عاقبة هذه الحرب الطاحنة التي أفقدتنا أموالنا ورجالنا!

ألونزو: سنتتهي والنصر بجانب العلم الإسباني إن شاء الله.

ستنجل: ولكن كيف كان الأمر لا يجب أن نهمل كريستوف كولومب، بل يجب أن يرى جلالة مولاي بآرائه وأفكاره التي أدهشت العلماء وأصحاب الأفكار.

الملك: سنرى بعدما يبسط لنا سيادة المرشد خلاصة الجلسة التي يعقدونها الآن، ولا يبعد أن أعضد هذا الرجل إذا لم يتطلب مشروعه مالا وافرا ومعدات جزيلة.

الكريدينال: ولكنني أرى أنتوان سميير جلالتك يعارض أشد معارضة هذا الفكر، ويعده من الخرافات والبدع الحديثة.

ألونزو: ويصف مُصدِّقيه بالحماقة والجهل، وقد كان المرشد يزعم زعمه، أما الآن فلا يثبت ولا ينفي.

الملك: هكذا يصنع الحكيم في مثل هذه الأمور، وإذا رفض المرشد فذلك لأنه يخاف أن تهلك نفس واحدة من رعيته في سبيل هذا العمل، وهو مسيحي صادق ضنين بالنفوس، يحب خير المملكة وسعادة الشعب، وقد أخبر الملكة بأنه لم يسمح لكولومب بالدخول لعلمه بأنه لا يصادف التفاتاً لديها نظراً لارتباك أفكارها.

ألونزو: ما أصدق هذا السيد الجليل وأشد إخلاصه!

الكريدينال: إنه يفعل واجباته.

الملك: ولهذا يستحق الشكر الجزيل؛ لأننا في زمان قلّ من يلتفت إلى واجباته.

حاجب (يلتفت إلى الخارج حيث يسمع وقع أقدام ويقول): مولاي، قد أقبل المرشد ومعه أنتوان وكولومب يطلبون المثول أمام جلالتك.

الملك: فليدخلوا (يخرج الحاجب) يقال إن ملكي فرنسا وإنكلترة أعارا هذه المسألة الخطيرة التفاتهما.

(يدخل المرشد وأنتوان وكولومب.)

المرشد: مولاي، عرضت أفكار كولومب على لجنة العلماء والفلكيين وجمعتهم بهم، وبعد البحث الطويل، والجدال العنيف، كذبوا كلهم زعمه ولم يعتدّ بقوله غير رهبان الدير.

أنتوان: إنه لضلال مبين، فلو كان يوجد عالم جديد لما بقي إلى الآن في زوايا الخفيان.

كولومب: قد أوردت لهم يا مولاي البراهين الحسية، ولكنهم مع ذلك بقوا مصرين مكابرين، ولا حجة لهم غير قولهم هذا محال.

الملك (إلى أنتوان): أهذه كل براهينكم وحججكم؟

أنتوان: مولاي، إن هذا الرجل بوم خراب، ونذير بالدمار؛ فإن ملك الترانسفال قد بحث بمسألته وأرسل بحارة فعادوا بعد أسابيع يهزؤون به.

الملك: وما رأيك أيها المرشد الفاضل فأنت فلكي ماهر علامة كبير؟ فقل لنا وكن مرشد الدين والدنيا.

المرشد: إن الحكم في مسألة كهذه يستوجب إعنات الروية، ولكن أفكار كولومب ليست ببعيدة التصديق.

أنتوان: إنها لكفر وبهتان وهي تناقض الكتاب المقدس.

المرشد: إن البحث في أمور الدين لا يعنك يا نديم الملك، ولكنكم جماعة علماء هذا الزمان تتخذون الدين ترساً تحتمون به لقضاء غاياتكم، إن العلم والدين أخوان وإن حاولتم التفريق بينهما، الدين لا يخالف هذا المشروع، أليس الله هو خالق كل شيء؟ أيمن أن تكون أنت خالق ذلك العالم يا حضرة النديم الفلكي إذا اكتشفه كريستوف كولومب؟ فلا تتذرع بالدين لقضاء مآربك وتأييد رأيك، فالرأي لا يُؤيد بغير الحجة والبرهان.

الملك (إلى المرشد): نطقت بالصواب يا سيادة المرشد.

حاجب: مولاي، بالباب رسول.

الملك: قل له يدخل، لا شك أنه أت من غرناطة، فماذا جرى؟

الرسول: مولاي، إن موقفنا خطر في بلاد الأندلس والحامية في احتياج إلى الذخائر.

الملك (يهم بالخروج): إلى كولومب! سأساعدك بعد انقضاء الحرب فقر عينا.

كولومب: أطال الله بقاءك أيها الملك الأجل.

الكريدينال، ألونزو، ستنجل: ندعو لجلالتكم بالنصر.

(يرخى الستار)

كريستوف كولومب

القسم الثاني

المشهد السابع

(يبقى المسرح كما كان.)

كولومب (وحده): وعود عرقوبية وآمال خائبة ما زلت في انتظارها في هذه المملكة، ما زلت يا فرديناند تعدني بمد يد المساعدة فتبرد نار اشتياقي إلى اكتشاف العالم الجديد، ولكن نار مُطْلِك تحرق قلبي وتذيبه، يقولون إن وعد الحر دين، فكيف وعد الملوك العظام يا تُرى؟ آه لقد صح ما قاله الطغرائي:

غاضُ الوفاءُ وفاضُ المُطْلُ وانفجرتْ مسافةُ الخُلفِ بين القولِ والعملِ

أهكذا يظل كولومب كقصبه في مهب الريح، لقد اجتمع علماء الإسبان وقرروا أن آرائي لا يليق بالملوك أن يكثرثوا لها، فأنا لا أقول الآن شيئاً، بل أدع التاريخ يكذبهم إذا قُدّرت لي المساعدة، دعاني الملك والمملكة إليهما وبعدهما قضيت السنين في انتظار وعدهما قالاً لي بأن الحالة الحاضرة لا تمكّنهما من مساعدتي، وعند انتهاء الحرب سيكون ما أتمناه، ولكن هذا الجواب لا يفي بالغرض المقصود والضالة المنشودة، بل ليس غير جواب احتيالي للتخلص من لجاجتي، آه ما أتعس حظي! أنا أحبك يا مملكة إسبانيا ولهذا أتيت إليك ويعزُّ عليّ أن أعود منك خائباً، اليوم في هذا الصباح تلقيت رسالة من ملك فرنسا وكتاباً من ملك إنكلترة وتحريراً من ملك البرتغال وهذا الأخير يطلب أن أعود إليه، ولكنني لا أعود كوني أحب إسبانيا. أحب إسبانيا وحبذا لو بادلتني الحب فلا أكون محباً غير محبوب.

يا مليكة إسبانيا ويا مليكها، ستندمان يوماً ما على كولومب، ستذكران أن الرجل غير مجنون، بل هو يتكلم عن معرفة أكيدة ولا يهرف بما لا يعرف، قبحكم الله أيها العلماء الجهلاء، وجوزيتم عني خيراً يا نيافة الكردينال ويا رهبان الدير؛ فقد كنتم أكبر عضد لي، إنكم تمثلون الدين الذي يصفح العلم والعلماء الذين يضطهدونه حتى نسبوا إليّ الكفر والضلال لو لم يكذبهم المرشد.

الفصل الأول

طفْتُ البلادَ وما ظفرتُ بحاجتي فكأنَّها العنقاءُ والخِلُّ الوفي
ربَّاهُ رفقا إنني لا أبتغي مجداً وغيرِ رضاك لست بمصطفى
فلأنتَ مسئولٌ بتوفيقي وما الت تتوفيقُ إلا بالعليِّ الأشرفِ

قد جاهدت في سبيل آمالي، وسرت إليها على رغم أنف الأقدار، ولكن الدهر أبى إلا معاندتي فلا حول ولا، إنما:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم الرغائبُ

الآن سأغادر إسبانيا كما جئت إليها، وسألحد أفكاري في ضريح السكوت، منتظراً الساعة التي ينفخ لها ببوق الحياة فتنهض، وإلا فستموت كما مات غيرها من ذي قبل. غداً سأجتمع بك أيها الأب جوان، وأقص عليك ما رأيت وسمعت، غداً سأجتمع بولدي الصغير دياكو الذي تركته في دير رابيدا، ثم أخذه وأغادر هذه البلاد منقاداً بأزمة الأقدار، فالوداع يا مملكة إسبانيا الوداع!

(يذهب وتدخل الملكة والمرشد والكردينال.)

المشهد الثامن

(الملكة - الكردينال - المرشد - رسول - خادم)

الكردينال: اليوم تلقيت رسالة من كولومب يعلمنا بها عزمه على مغادرة إسبانيا، وربما يكون غادرها الآن.

الملكة: يعزُّ على إيزابلا ملكة إسبانيا أن تكون يدها قاصرة عن مساعدة كولومب، أه ما أشأم الحرب! فهي ويل على الظافر والمنكسر، فلولاها لاستطعت أن أمد كولومب بكل ما يشاء من المال، ولكن ما العمل ومطالب الحرب أكثر من مطالب النساء؟ في كل يوم وساعة تطلب منا الذخائر، وإن كنا نعجز عن القيام بالفروض فكيف نقوم

بالنوافل؟ فليذهب كولومب إلى حيث شاء ومتى قدرت على مساعدته ساعدته، ولا أظنه يبخل بالعود إلينا.

الكردينال: تاعس هذا الرجل! ورغماً عن مناهضة علمائنا لآرائه، فأنا أعتقد بصحتها.

المرشد: قد يكون ذلك يا نيافة الكردينال، ولكن العلماء قاطبة سَفَّهوا هذه الآراء وهزَّءوا بها ولم يصدقها غير بعض الرهبان، وقد كانت جلسة العلماء الثانية ضربة قاضية على مزاعم كولومب فقوَّضت أركانها وهدمت بنيانها.

الملكة: تأكد يا أباي أننا إذا لم نساعد كولومب فما ذاك لأننا استهزأنا بآرائه، بل ذاك صادر عن عجزنا، هكذا يجب أن تعلم.

المرشد: كيف كان الأمر فحسناً فعلت.

الكردينال: أراك أيها الأخ مقاوماً لكولومب بكل قواك.

المرشد: أنا لا أقاومه ولكن أرى مسألته ذات شأن.

الخادم: سيدتي، بالبواب رسول يحمل إلى جلالتك هذا الكتاب (يدفعه إليها).

الملكة (تقرأ الكتاب ثم تقول): قل للرسول أن يدخل (ثم تطرق مفكرة) (يذهب

الخادم ويعود بالرسول) (إلى الكردينال والمرشد) هذا رسول بعث به إلينا الأب جوان راهب دير رابيدا وبه يخبرنا عن عود كولومب إلى الدير، وعزمه على الذهاب إلى بلاد الإنكليز، فما رأيكما الآن؟

الكردينال: إن سيدتي صاحبة الرأي الصائب.

الملكة: إذن، عُد يا رسول إلى الدير، وقل للأب جوان يحضر عاجلاً؛ لنرى ما سيكون من أمر كولومب، إن هذه المسألة أشغلت بالي.

المرشد: فلتكن مشيئتك يا رب، لا تسمح بضر هذه المملكة المحبوبة وهلاك الشعب، أرشدنا إلى الخير يا الله.

(يدخل ألونزو وستنجل.)

المشهد التاسع

(ألونزو - ستنجل - الكردينال - المرشد - الملكة - جوان)

ألونزو: سيدتي، تناولت رسالة من صديقي القائد العام في الأندلس.
الملكة: بربك ما بها؟

ألونزو: أهوال يا سيدتي تشيب لها رعوس الأطفال، العرب تهاجم الإسبان كالليوث الكاسرة، يقتحمون الموت كأنهم يهاجمون جباناً رعيدياً.
الكردينال: أه ما أشد بأس العرب! ما أشجع هذه السلالة النبيلة!
المرشد: بل ما أجنّ البشر! وويل لمن تهرق بسببه نقطة دم بشرية.
ألونزو: اليوم يا سيدتي يحاصرون غرناطة، والعرب يدافعون عنها دفاع الليث عن أشباله.

ستنجل: وقد بلغني أن قد ذهب من رجالنا عدد غفير، وأن شوكة بأس العرب لا تزال قوية.

الملكة: سنشتري غرناطة بثمن غالٍ، ما أشد عذابي يا الله!
ستنجل: لا تجزعي يا سيدتي، فالله من وراء أعمالك.
الكردينال: يظهر أن النصر بجانب العلم الإسباني.
الملكة: حقق الله الآمال.

جوان (يدخل): سيدتي، حسب أمرك السامي أتيت (يركع).
الملكة: انهض أيها الأب، انهض.

جوان: أتيت يا سيدتي لأعرض على أعتابك مسألة كولومب التي أشغلت نوادي ملوك هذا العصر، فما رأي جلالتك؟

الملكة: إن شواغل السياسة تلهيني عن المسألة، ولكن ما العمل وجوان يريد أن نهتم بها؟

جوان: نعم أريد ذلك؛ لأن به أجلٌ فخر للمملكة التي أحبها وأتمنى أن تكون سيده البر والبحر.

الملكة: وماذا تعتقد برأي كولومب؟

جوان: بصحته يا سيدتي، وأكفل نجاح المشروع.

المرشد: الله وحده يعلم وهو الكفيل بالنجاح، فلنتكل عليه هكذا يجب أن تقول.
الملكة: دعه يتم.

جوان: فبراهين كولومب ساطعة كنور الشمس لا ينكرها غير كليل البصر، وقد بلغني أن سيدتي قد ارتاحت إليها أعظم ارتياح.

الملكة: نعم، إن أفكاره ألفتت أنظاري.

جوان: فما المانع إذن من رجوعه إلى نادي جلالتك والاتفاق معه؟

الملكة: لا مانع غير مشاغل الحرب الحاضرة.

جوان: إنها أزمة ستنقضي بعد حين، فإذا أمرت عقد الاتفاق معه الآن، وبعد انتهاء الحرب يبدأ بالعمل.

الملكة: إذن عُد من حيث أتيت وقل له يرجع.

جوان: أستودعك الله يا سيدتي (ويخرج).

الملكة: رافقتك السلامة.

المشهد العاشر

(الملك - الملكة - الكردينال - أنتوان - ألونزو - ستنجل - كولومب)

الملكة: ما أصعب سياسة الممالك وما أضيق طريقها! فإنها مكسوة بقتاد المصاعب، فإنني لا أبيت ليلة مرتاحة الفكر، أريد أن أرتاح ولا أقدر؛ لأن إسبانيا تطلب كل يوم مجداً جديداً.

المرشد: ما أشرَّ الطمع فقد أضر وما نفع!

الكردينال: نعم، إن النفوس العالية لا تشبع من المجد (يسمع وقع أقدام) هو ذا جلالة الملك مقبل، إنني أرى جبينه مشرقاً فماذا جرى؟

(يدخل الملك.)

الفصل الأول

الملكة: سيدي، ما أخبار الحرب؟
الملك: لا شيء جديد غير جهاد وعذاب في سبيل غرناطة.
الكردينال: ستجتني ثمرة لذيذة من عذابها إن شاء الله.
الملكة: دعونا من حديث الحرب فهو مؤثر محزن. (إلى الملك) قد كلفت الأب جوان أن يأمر كولومب بالرجوع.
الملك: وأي حاجة لنا بذلك الرجل؟
الملكة: اكتشاف العالم الجديد.
الملك (يهز رأسه): وهل مضى زمن على ذهابه؟
الملكة: أظن كولومب يصل عن قريب.
الملك: قد كنت أفضل تأجيل هذا الأمر، ولكن ما كتب قد كتب، ولا يليق بالملوك أن تعود إلا عن الغلط.

ألونزو: لا محل للندم يا سيدي.
ستنجل: نعم، وملوك عديدون يحبون أن يعضدوا كولومب.
الملك: وأنا أحب أن أعضده، ولكن بغير الأزمة الحرجة.
أنتوان: نطقت بالصواب يا سيدي، ولا بأس من تأجيله.
الملك: لا أيها السمير، فنحن لسنا كصبيان الأزمة، قد دعونا فيجب أن نقوم بما دعوناه لأجله، فكلام الملوك ملوك الكلام.

المشهد الحادي عشر

(المذكورون وكولومب)

خادم: سيدي، قد عاد الإيطالي، أتأمر بدخوله؟
الملك: نعم. (إلى الملكة) أنت قد دعوته فحدثيه بما تأمرين.

(كولومب يدخل ويحيي.)

الملكة: قد عزمنا يا كولومب على مساعدتك، وفي هذه الساعة سنرى في شروط الاتفاق ما بيننا، خذ يا ستنجل ورقة وقلماً، واكتب مطالب كولومب ومطالبينا.

(ستنجل يتناول ورقة وقلماً.)

كولومب (بعد الافتكار): أولاً: أُلِّقَ بالقائد الأكبر على البحور التي أكتشفها، وبناءً الملك على البلدان التي أفتتحها، وأُعطي كل حقوق هذين اللقبين وامتيازاتهما. ثانياً: لي عُشر أرباح تجارة تلك البلدان. ثالثاً: تقدمون لي اللوازم من سفن ورجال وذخائر وغير هذا لا أطلب.

أنتوان: غير هذا لا تطلب؟! هذا قليل قليل يا حضرة القائد، ويا نائب الملك. آه ما أعظم مطامعك! وإذا خسرت المملكة فأنت ماذا تدفع؟

المرشد: ماذا تريد أن يدفع وهو لا يملك شروى نقيير؟

أنتوان: إِدْنْ فليدعنا وشأننا، فنحن في غنى عن مشتري الأسماك في الأبحار.

الملك: إذا كانت هذه مطالبك فلا أمل لك عندنا في المساعدة، فدعنا واقصد سوانا.

الملكة (تتأثر): آه ما أتعس حظ هذا الرجل!

الكردينال: وما أنكد طالعه!

(كولومب يخرج والكدر ظاهر على جبينه.)

الملك: هذا الرجل مطماع جسور، فاحذروا أن يحدثني أحد في شأنه فيما بعد، وأسدلوا على مطالبه الستار.

(يخرج الملك ويتبعه أنتوان.)

المشهد الثاني عشر

(الملكة - ألونزو - ستنجل - الكريدينال)

ستنجل: إنني أترامى على أقدامك وأسألك ألا تحرمي مملكة إسبانيا من شرف أبدي، إن كريستوف كولومب رجل نابغة نادر الذكاء وأفكاره سامية، ولا عبرة بفقره؛ فقد يوجد الدر في الأقدار، إن مشروعه يعود على المملكة بالخير فساعديه ناشدتك الله، عجباً! كيف تترددين أمام مسألة ربحها وافر، والرجل لا يطلب غير سفينتين وثلاثين ألف ليرة؟ وما أعظم الأسف الذي يشملنا إذا اكتشف كولومب تلك البلدان بمساعدة مملكة غير مملكتنا!

ألونزو: نعم يا سيدتي، قد طلبه بعض الملوك وأنا اطلعت على كتاباتهم إلى هذا العلامة الكبير.

ستنجل: فساعديه يا سيدتي، فبمساعده مرضاة الحق سبحانه وتعالى.

الملكة: إنني أخشى أن لا يرضى بذلك، وما رأيك يا مرشدي الجليل؟

المرشد: يفعل الله ما يشاء ويصعب عليّ الحكم على المستقبل المجهول.

ستنجل: إذن لا أمل بذلك يا جلالة الملكة.

الملكة: بلى، أنا أقوم بذلك على اسم مملكة كستيليا، وها إنني عزمت منذ الآن على رهن مجوهرات تاجي الملوكي، فإذا نجحت كان سروري عظيمًا، وإن خسرت فلا أسف على تلك الخسارة، وفي كل الأحوال سيحفظ لي التاريخ ذكرًا جميلًا وذلك حسبي وكفى (تأخذ ورقة وتكتب).

ألونزو: ما أكرم هذه الملكة! فإنها رجل في صورة امرأة، وملاك في صورة إنسان.

ستنجل: إنها العذراء الثانية التي ستنقذ عالمًا جديدًا بأسره من رق عبودية

الهمجية.

الملكة: خذ أيها الجندي هذه الرسالة وابحث عن كولومب حتى تجده، ثم ادفعها

إليه.

(الجندي يأخذ الرسالة.)

كريستوف كولومب

ستنجل: أنا ذاهب يا سيدتي لأجهز المعدات.
المرشد: وأنا أصلي إلى الله ليكلل سعيك بالنجاح.
ألونزو: إننا سنضحى كل غال ورخيص في سبيل هذه الخدمة الوطنية.
(يخرجون جميعهم.)

المشهد الثالث عشر

الملكة (وحدها):

سيظلُّ رهناً كي أنالَ مرامي	تأجى ومجدي والمقامُ السَّامي
كولومبَ هل أستزجِعَنَّ كلامي	إنى وعدتُ بأن أمدُّ يدي إلى
صغري فقدسَّ يا إلهُ غرامي	إنى عشقتُ العلمَ والعلماءَ من
تمجيدِ إسْمِكِ بارئِ الأنامِ	يا ربُّ لا أبغى بأعمالي سوى
دُنيا الجديدةَ قبلَ وقعِ حمامي	ربَّاه قرَّبَ ساعةً فيها أرى الدُّ
كولومبَ كي أحياَ بلا ألامِ	واجعلُ فؤادَ الملكِ منعطفًا على
ضحَّتْ شعارِ المجدِ والإكرامِ	سترُدُّ الأعصارُ: إيزابل قد
تقضي لُبانةَ عالمِ الأعلامِ	جعلتُ ضحيَّتها شعارَ الملكِ كي

نعم هكذا سيقال، ولكنني لا أبالي بأحكام المؤرخين إن نسبوا إليَّ الطيش، وجعلوا في تاريخي نقطة سوداء إذا لم ينجح مشروع كولومب. ماذا يقول الملك يا ترى إذا درى بعزمي على رهن تاج ملكي؟ والله لا أدري، إنه سيغضب ولكنني أجيء إليه بذل وخضوع فيرق فؤاده كما رق فؤاد أحشورش على مليكته أستير، تلك قد سعت في خلاص شعبها وأنا أسعى الآن في خلاص شعب لا أعرفه ولا يعرفني، وبهذا أتمم وصية سيدي يسوع المسيح. ربَّاه خذ بيدي فأنت وحدك خير مستؤل.

(تتكئ على كرسي بسكوت.)

المشهد الرابع عشر

(الملك - ألونزو - ستنجل - الكردينال - المرشد - كولومب)

ألونزو: سيدتي، قد اتصل بمسامح مولاي الملك عزمك الوطيد على مساعدة كولومب، وعن قريب سيأتي ليراك.

الملكة: ربّاه! احمله على مساعدتي وخلصني من غيظه. وهل ظهرت على وجهه علائم استنكار فعلي؟

ستنجل: لا يخلو الأمر من ذلك، ولكن المرأة الفاضلة تستطيع أن تتصرف بقلب زوجها وأمياله كما تشاء.

ألونزو: ولو كان ملكًا فسلطان الحب الصحيح فوق كل سلطان.

الملكة: حقق الله أقوالكم (يدخل الملك) (تركم) عفواً يا سيدي، إذا كنت فعلت أمراً خطيراً قبل استمداد رأيك. قد كتبت إلى كولومب وعن قريب يصل إلى هذا المكان.

الملك: هذه هي المرة الثانية التي تأتين بها مثل هذا الفعل (يهز رأسه).

الملكة: عفوك سيدي، وإذا شئت تفضل بوضع الشروط.

الملك: الشروط حبر على ورق، ولكن أين المال؟

الملكة: أنا أتعهد بتقديمه وقد عزمت على رهن مجوهرات تاجي.

الملك: رهن تاج الملك؟ أمر غريب! هذا لا يكون.

ألونزو: ونحن لا نرضى بذلك أيضاً.

ستنجل: أنا أجمع المال، بل قد جمعت أكثر من نصفه.

الملكة: رباه ما خاب من يدعوك.

الملك: وكيف جمعته أيها الوزير؟

ستنجل: أقمت قرضاً على الرعايا، وضربت الضرائب على الشعب.

الملك: أه ما أقسى الضرائب! إنها مقوضة أركان العروش وزراعة بذور بغض الملك في قلوب الشعب، أنا لا أرضى بالضرائب أيها الوزير، الشعب فقير فلا تحرجوه، الشعب نائم فلا توقظوه، وليكن لنا قدوة بمرقس أوراليس الذي باع أثاث قصره ولم يطلب بارة واحدة من رعيته، أرجع المال إلى الشعب، فقد كفاه ما قاساه من الضيق في هذه الحرب الأخيرة.

ستنجل: لقد دفعوا يا مولاي عن طيبة خاطر.
الملك: آه ما أكرم شعب إسبانيا! لا بأس، ولكن لا تجمع شيئاً فيما بعد، خذ أيها المرشد، واكتب الشروط لتدفع إلى كولومب فور دخوله، فإذا قَبِلَ بها كان به، وإلا أخرجوه من أمامي، واطردوه من أرض إسبانيا فقد أزعجنا هذا الرجل.

صك الاتفاق

- (١) لكولومب وسليلته لقب الأميرال الأكبر في البحور والبلدان والأراضي التي يكتشفها مع حقوق هذا اللقب وإنعاماته.
- (٢) يُلقَّب كولومب بنائب ملك على الأراضي والبلدان التي يكتشفها، وأمر تولي المناصب في الجزائر والأقاليم منوط بالملك، إنما لكولومب حق الإنهاء بثلاثة يختار الملك واحداً منهم.
- (٣) لكولومب عُشر الأرباح الشرعية التي تنتج عن تجارة البلدان التي يكتشفها.
- (٤) لكولومب أو وكيله حق فصل الخلاف الذي يقع في إسبانيا بالأمر التجارية في البلدان المار ذكرها.
- (٥) يُقدِّم لكولومب ثمن المصارفات المقتضية عن المستقبل والحاضر للسفر إلى البلدان المراد كشفها، وله الحق بثمن الأرباح الناتجة من تلك البلدان.

في ١٧ نيسان سنة ١٤٩٢

(كولومب يدخل مسلماً).

الملك: اعرض على كولومب الشروط أيها المرشد، فإننا نريد أن نضع حداً لهذه المسألة.

المرشد: هذه هي الشروط يا كولومب، فاقرأها واشكر إنعام الملك.
كولومب (يقرؤها): قد قبلت بها (يضحك من شدة الفرح).
الملك: إنَّ اخرجوا أيها الوزراء، وأعدوا السفن والبحارة الذين سيرافقون كولومب، وعاملوا الشعب بالرفق واللين، وأنت أيها المرشد اكتب لكولومب أمرًا به نقضي على سائر بلدان المملكة بتقديم كل ما يلزم له.
كولومب: الآن قد أدركت ضالتي المنشودة، الآن نفسي فرحت، شكرًا لك أيها الملك، وأنت أيتها الملكة، لا أشكرُ بل أدعُ شكرك للتاريخ، وإذا سكت تنطق الحجارة.
(يخرج ومعهُ المرشد والوزيران.)

المشهد الخامس عشر

(الملك - الملكة - الكريدينال - ألونزو - مرتين - المرشد - الشعب - أنتوان)

الكريدينال: ما رأيك مولاي؟ وهل تظن أحدًا من الشعب يخاطر بنفسه ويرافق كولومب؟ فأنا لا أظن ذلك.

الملك: وأنا لا أظن، ولكن القوة لازمة في بعض الأحيان.

الملكة: وكيف ذلك؟

الملك: إذا لم يقنع الشعب يجب أن نخضعه بالقوة.

الكريدينال: مولاي، لا تعامل شعبك بالقسوة، فما لاقاه من شقاء الحرب يكفيه.

الملكة: لا أمل بانقياد الشعب عن طيبة خاطر.

الملك: ربّاه، الأمر لشديد، ألهمني أصنع مشيئتك (يُسمع ضجيج).

ألونزو (يدخل): قد هاج الشعب وثارَت الخواطر وكاد الناس يضربوننا بالعصي، فماذا تأمر أن نجري؟

(الملك يطرق برأسه.)

الملكة: ما هذا الضجيج؟

ألونزو: جمهور من الشعب يحدثون مظاهرة.

الملك: احذروا أن يشتمهم أحد فأنا أنا أخاطبهم.

أنتوان: إن كولومب لا يغادر إسبانيا قبل أن يهدم الملكية، قَبَّحَهُ اللهُ من غراب سوء

وبوم دمار.

(ضجيج عظيم وهتاف.)

الشعب: لا نسافر، لا نسافر، ما هذا الجور؟ ما هذا الظلم؟ (يدخلون على الملك).

ألونزو: اسمعوا أيها الشعب، فالملك يريد أن يخاطبكم.

الشعب: لا نريد، لا نرضى.

الملك: اسمعوا، أنا لا أريد غير شرف إسبانيا ومجدها؛ ولهذا أدعوكم إلى مناصرة

كولومب.

زعيم: ما هذا الشرف؟ ما هذا الوهم؟ إذا كنت تريد أن تميّتنا فمر بقتلنا بين أهلنا

وأصحابنا، ولا تطرحنا في أعماق اللجج، فنحن لا نغادر وطننا، بل نفضّل الموت فيه.

الشعب: نعم، نعم.

الملكة: أنصتوا يا أبنائي، أنا ملكتكم إيزابلا أخاطبكم.

الشعب: أنتِ أُمنا فأشفقي علينا.

الملك: إذا لم تخضعوا أمرت الجنود بإجباركم.

الشعب: حبذا الموت في الوطن.

مرتين: إخواني، اسمعوا، تعلمون أنني رجل منكم، وحياتي عزيزة لديّ، فثروتي

واسعة، وشهرتي عظيمة، ولا أطمع بشيء من هذه الدنيا، أنا ملاح مشهور، وأريد أن

أرافق كولومب، فما قولكم؟ (إلى الملك) مولاي، أنا أول المتطوعين في خدمة كولومب،

وأقدم مالي إذا لزم الأمر.

(يسكت الجمهور.)

الفصل الأول

الكردينال: هو ذا مرتين ألونزو يتقدم إلى مرافقة كولومب، ولو كان في الأمر خطر
لما تقدم، فما رأيكم؟ ألا تُسلمون بالذهاب؟
البحارة: سلّمنا، أطعنا.

الملك: انفخوا الأبواق، وأنشدوا نشيد الحرب، وسيروا إلى افتتاح العالم الجديد.

(تنفخ الأبواق.)

(نشيد):

ألباينا فيه تطيب	يا حبذا فتح قريب
وإلى البحار تقدّموا	يا قوم سيروا وأقدّموا
وهنالك الأمر العجيب	فلكم وراها مغنم
حتى تفوزوا بالوطن	سيروا ولا تخشوا الخطر
إن كان ترسكم الصليب	لا ترهبوا بطش القدر

وعند الانتهاء يركع جميع المسافرين، ويباركهم الكردينال.

(يرخى الستار)

الفصل الثاني

القسم الأول

(يمثل الملعب سفينة السانتا ماريًا في البحر).

المشهد الأول

كولومب:

وَمَا لِي فِي الْبَلَاءِ سِوَاكَ نَاصِرٍ
بَصِيرٍ لَمْ يَجِبْ فِي النَّاسِ صَابِرٍ
وَعَيْرٍ وَعَيْدٍ قَوْمِي لَسْتُ نَاطِرٍ
بِلَائِي أِهْ إِنَّ الدَّهْرَ غَاوِرٍ
بِعِزْمٍ لَمْ يَرَوْهُ قَطُّ خَائِرٍ
عَظِيمٍ فُطِرَتْ مِنْهُ الْمَرَاتِرُ
إِلَى قَصْدِي وَمَا لِي مِنْ مُسَامِرٍ
وَإِنَّ الْيَأْسَ لِلْأَبْطَالِ قَاهِرٍ
ظَنَنْتُ بِأَنْنِي بَاغٍ مُكَابِرٍ
عَلَى إِعْدَامِهِ عَقَدُوا الْخَنَاصِرُ
كَمَا قَدْ كُنْتُ لِي فِي الْبَرِّ نَاصِرُ

أَنَا مُلْقَى بِأَفْوَاهِ الْمَخَاطِرِ
عَلَيْكَ بَنِيْتُ أَمَالِي فَجُدْ لِي
إِلَهِي لَا أَرَى إِلَّا شِقَاءَ
كَأَنَّ يَمِينَ هَذَا الدَّهْرِ خَطَّتْ
بَقِيَّتُ وَرَاءَ أَمَالِي مُجِدًّا
وَقَدْ أَدْرَكْتُهَا مِنْ بَعْدِ ذُلِّ
وَهَا إِنِّي عَلَى الْإِبْحَارِ أَسْعَى
رِجَالِي كُلُّهُمْ فِي الْيَأْسِ غَرَقَى
وَقَدْ هَاجُوا عَلَيَّ الْآنَ حَتَّى
وَمَا فَعَلَ الضَّعِيفِ إِزَاءَ قَوْمٍ
فِي رِبَاهُ كُنْ فِي الْبَحْرِ عَوْنِي

(يسكت) (نواح في الداخل).

إِنَّ هَذَا النُّوَّاحَ قَطَّعَ قَلْبِي قَطَّعَ اللَّهُ قَلْبَ هَذَا النُّوَّاحِ
إِنَّ قَلْبِي كَقَلْبِهِمْ جَرَّحُوهُ فَاشْفِ رَبِّي جِرَاحَهُمْ وَجِرَاحِي

مرُّ هو فراق الأوطان! فابكوا على أوطانكم أيها الرجال، أنا لا أبكي مثلكم؛ لأنني لا أعرف وطني، وطني العالم وإخوتي الناس، وطني العالم الجديد إذا توفقت إلى اكتشافه، يا رب شدد عزيمة هؤلاء الرجال، واخمد نار ثورتهم عليّ، ما بالهم يضجون؟ ما بالهم يعولون؟ قد اقتربوا مني فلأبعد عنهم.

(يدخلون).

المشهد الثاني

(الفونس - مرتين - فيراندو - فينشنته - لويس - بينزون)

الفونس: هنا بعيداً عن الأوطان سأموت، هنا في هذه اللجج الهائجة سيكون ضريحي، سأذهب ضحية مطامع الملك والملكة، وذاك المجنون كولومب. أه أين أنتِ أيتها الأوطان؟ أيتها الأرض التي أبصرت فوقك النور، واكتسبت من هوائك ومائك القوة والنشاط، أين أنتِ يا أمي الحنون؟ هنيئاً لك يا أبي؛ فلقد مت قبل ما رأيت ابنك يشقى ويعذب في قلب الأوقيانوس الهائج، ما أسعد حظك أيتها الأسماك! فقد ساقنا إليك الجنون قوتاً وغذاءً لم تذوقيهما قبل الآن، يا لها من مصيبة عمياء! وأشواقِي إليك يا سماء إسبانيا النقية ويا أرضها الجميلة، وا أسفاه! أين نحن؟ بين سماء وماء وهيهات أن نرى الأرض فيما بعد!

مرتين: الأرض حلم غريب لا أمل بمرآها أيها الصديق، فمن فوق البحار أمُدْ يدي لأعانقكم يا أولادي، أه ما أمرُّ الفراق! ما أمرُّ تلك الساعة التي ذرقتم بها دمعة الوداع، وطوّقتم عنق والدكم بأذرعكم اللطيفة، أي أبناء وطني الإسباني نوحوا على ألونزو واندبوه فهيهات أن تروا ألونزو فيما بعد!

فَارَقْتُكُمْ إِذْ ظَنَنْتُ اللَّهَ يَجْمَعُنَا وَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ لَا أَرْجُو تَدَانِينَا

الفصل الثاني

بِنْتُمْ وَبِنًا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا
يَا أَيُّهَا الْبَحْرُ رَفَقًا إِنَّ صَبِيَّتَنَا
يَا بَحْرُ كُنْ مُشْفَقًا وَارْحَمْ صِبَاءَهُمْ
بِاللَّهِ أَيَّتُهَا الْأَمْوَاجُ مَرَحِمَةٌ
مَا عَدْتُ أَرْجُو لِقَاءَ فَيْكَ يَا وَطَنِي
يَوْمَ الْوَدَاعِ وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا
بِالذَّلِّ وَالْوَيْلِ تَرْتِينًا وَتَبْكِينَا
أَأَنْتَ كَالْمَلِكِ فَرْدِينَانِ تُشَقِّقِينَا؟
تَأْمَلِي وَانظُرِي فَعَلَ الْجَفَا فِينَا
فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ قَدْ أَضْحَى تَلَاقِينَا

(ويبيكي.)

فيراندو: ما أمر الموت في غير الوطن! ولكن ما العمل وسهم القضاء قطع أكبادنا ومزق قلوبنا؟ ساق لنا القدر كولومب المجنون حتى استاقنا إلى هذا البحر كما تساق النعاج البريئة إلى الجزر، ولكن سيلاتي عقابه إن شاء الله، فاذرفي الدمع يا عيوني وزيدي مياه البحر أمواها، ويا حر أنفاسي احرقني أخشاب هذا المركب، وأريحينا من هذا العذاب وهذا الشقاء.

فَارَقْتُ أَوْطَانِي وَقَلْبِي ذَائِبٌ
فَارَقْتُ إِخْوَانِي وَكَانَ أَحَبَّ لِي
كَانُوا الْمِيَاهَ وَإِنِّي مَتْعَطِشٌ
نَادَى بِفُرْقَتِنَا غَرَابٌ أَسْوَدٌ
أَيْرَى الْهَنَا مِنْ فَارَقِ الْأَوْطَانَا؟
مَوْتِي وَلَسْتُ أَفَارِقُ الْإِخْوَانَا
أَيَعِيشُ مَرَّةً ظَامئًا عَطْشَانَا؟
يَبْلِيهِ رَبِّي مِثْلَمَا أَبْلَانَا

فينشنته:

تَغَرَّبْتُ عَنْ أَهْلِي وَيَا طَوْلَ غَرِبَتِي
وَيَصْبِحُ فِي أَعْمَاقِ ذَا الْبَحْرِ مَسْكِنِي
تُكْفِنُهُ أَيْدِي الْمَحْبَبِينَ بِالْبُكََا
أَلَا يَا تُرَى الْأَوْطَانَ جَادَتِكَ مَزْنَةٌ
وَيَا أَسْفِي إِنْني أَمُوتُ غَرِيبًا!
فَطُوبَى لِمَنْ يَقْضِي هُنَاكَ طُوبَى
وَيَقْضُونَ أَيَّامًا عَلَيْهِ نَحِيبًا
فَقَدْ كُنْتُ لِلْقَلْبِ الْجَرِيحِ طَبِيبًا

الآن يا إخوان يجب أن نقيم مأتمًا ونحن أحياء؛ لأن بعد موتنا ليس من يصنعه لنا، تعال يا لويس، وأسمعنا صوتك الشجي ودعه يمتزج بين أنين الأمواج أسفًا علينا.

لويس:

في قعرِ ذا البحرِ يمسي اليومَ مضجَعُنَا
رُحْنَا ضحيَّةَ ملكٍ لا فؤَادَ لَهُ
إسبانيا إلبِسي من بعدِ ميْتَتِنَا
قد أرسلْتُنَا «إزابِلا» لنكشِفَ مَا
وسرِبَلْتِ برداءِ الويلِ صبيْتِنَا
يا ليتَهَا شعرتْ فيما نُكايدهُ
أبناءَنَا رددوا دهرًا ولا تخفوا
فقطعتْهُمُ أيادي الظالمينَ كَمَا
أصحابَنَا ودَّعوا وابتكوا حياتكُمُ
نوحُوا اندبُوا أهلكُمُ وابتكوا موطنكُم

فيا لَهَا ضجعة في موطنِ العدمِ!
وجاهلٍ ككولومبِ الفاقدِ الشممِ
ثوبَ الحدادِ وسحِّي الدمعِ كالعنمِ
قد باتَ في عالمِ النسيانِ والوهمِ
فويلها من دُعَا المظلومِ في الظلمِ
فذا عقابٌ لَهَا من أعظمِ الألمِ
أباؤنا جُعِلُوا لحمًا على وَضَمِ
شاءتْ وشاء الهوى يا ربُّ فاحتكِمِ
فلا نجاهَ لكم من منبعِ الديمِ
فلا رجوعَ إليها أه! وا نَدَمي!

المشهد الثالث

(بينزون - لويس - مرتين - فيراندو - ألفونس - فينشنته - كولومب)

بينزون: بلى سنعود إلى الأوطان ونعانق فيها الأهل والخلان، أتريدون الرجوع أيها الشجعان؟

الجميع: الرجوع، الرجوع.

بينزون: إِدْنِ يجب أن تصنعوا كما أقول لكم، فلنقدم كولومب المجنون لقمة للأسماك، فلنطرحه في أعماق هذه اللجج ونريح العالم من أفكاره وجنونه، فهو يقودنا إلى الموت من حيث لا يدري، فليذهب فدَى عنا كما ذهب يونان، ولكن هيهات أن يلفظه الموت الذي يبتلعه.

لويس: لقد أصبت فهذا هو باب النجاة والخلص، ولكن إذا سئلنا عن الرجل ماذا نجيب؟

الفصل الثاني

بينزون: الأمر بسيط جدًّا، كان يرصد النجوم ليلاً فهوى في البحر ولم ندرِ بسقوطه، هكذا نجيب وهذا هو فصل الخطاب، ما رأيك يا ألونزو؟

ألونزو: الرجوع واجب رضي كولومب أم لم يرضَ.

فيراندو: إن قتله عين الصواب، فإذا رجع بنا يكرر حياتنا ويغضب الملك علينا.

الفونس: إذن استعدوا فلا بد أن يكون طرق مسامحه نواحنًا، وعن قريب يأتي ليموه علينا ويرينا العالم الجديد أمامنا حسب عادته، هذه هي المرة الثالثة التي نثور بها عليه ويخمد بداهته ثورتنا، أما الآن فينبغي أن تلتهمه نار هذه الثورة ولا ينجيه منها أحد.

فينشنته: اطرحوه اطرحوه بعد أن تمزقوه إربًا إربًا، ولا تخشوا أن يطالبكم به أحد فيما بعد، فهو مجنون كان ولم يزل أضحوكة وموضوع الهزء والسخرية لا يُعرف له مضرب عسلة ولا منبت أسلة، غرَّقوه وأنا الكفيل بنجاتكم الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين.

(كولومب وبرتلموس يدخلان.)

المشهد الرابع

(المذكورون - كولومب - برتلموس)

كولومب: أتيت لأبشركم بالفوز القريب.

فيراندو: قد صمّت أذاننا عن سماع هذه الأكاذيب، وهاجت بنا الأشواق إلى الأوطان، وقد قطعنا مسافة ٢٧٠٠ ميل في البحر، فأبي أمل لنا بعد؟ فعد بنا إليها وإلا ...

الفونس: تركناك مدفونًا في هذه البحار وعدنا إلى أهلنا.

كولومب: سمعت بأذني ما دار بينكم أيها الرفاق، ولكن لا أظن أن عقولكم تسلم بما تطلبه قلوبكم، لقد قضينا زمنًا طويلًا في هذا السبيل، أعلى يوم أو يومين نترك الثمرة التي أوشكنا أن نجتنها؟ أجيبيوني بربكم.

بينزون: نعم نتركها إذ لا أمل باجتنائها.

كولومب: الأمل قريب أيها الرفاق، فاصبروا قليلاً.

فينشنته: منذ زمان وأنت تعدنا حتى أصبحنا إذا رأينا الأرض الجديدة بأعيننا لا نصدق، أه ما أشد احتيالك يا رجل! عُد بنا الآن، وإلا كملت بك مشيئتنا.

كولومب: ماذا تفعلون وما هي مشيئتكم؟

الفونس: نطرحك في هذا البحر، ونعود من حيث أتينا.

برتلماوس: يا للجسارة! يا للوقاحة!

كولومب: أيها الرفاق، لا بأس أن تنتهي سلسلة حياتي كما تريدون، اقطعوها أيها البرابرة، فكل حلقاتها ويل وشقاء، ولكن كولومب لم يحد عن عزمه بعد وهيئات أن يعود! أقنعت بعد صبر وجهاد مملكة إسبانيا وحملتها على مساعدتي، فسلمني ملكها وملكتها زمام أموركم وأنا مستعد لمقاومتكم ولو على فراش الموت، لا أعود بكم قبل أن أبلغ أمنيته، أسمعتم؟ أنا أمركم باسم الملك فرديناند وباسم الملكة إيزابل أن تقوموا بواجباتكم حق قيام لأكافئكم خيراً، وإلا فإنني سأعاقب كلاً منكم على عمله وينال جزاء ما فعلت يده الأثيمة.

فيراندو: سنعاقبك قبل أن تعاقبنا أيها المجنون، لقد صدق أنتوان بكل ما قاله عنك أيها الجاهل.

برتلماوس (يستل سيفه ويهجم على فيراندو): اسكت يا لئيم.

كولومب: اغمد سيفك يا أخي، أيها الإخوان عودوا إلى أعمالكم، واشكروا الله، فالريح جارية كما نشتهي، ساعدنا يا رب واكلاًنا بعين رحمتك.

الجميع: إلى الوراء، إلى الوراء.

كولومب: ما أشد عنادهم! مجانين أنتم أيها الرجال قلت لكم لا أعود لا أرجع فلا تطمعوا بالمحال.

فيراندو: يا لك من وقح جبان، مجنون وتعييرنا بالمجنون، عد بنا وإلا قتلتك الآن شر قتلة.

كولومب: جنودي، أه لا قائد ولا جنود إزاء إرادة الجمهور.

الفصل الثاني

ألفونس: من أنت حتى تدعو جنودك؟ يا لك من أحقق سفيهه (يلطمه على رأسه).
الجميع: اقتلوه، غرقوه، وعودوا بنا.

مرتين: اسمعوا لأخطبه، ابعدوا قليلاً. (إلى كولومب) قد رأيت هذه الثورة فلا تقدر أنت وأخوك أن تقاوم جمهوراً غفيراً. الجنود أصبحوا من أنصار البحارة، وكلهم في العمل يد واحدة.

كولومب: وأنت وأنت يا مرتين.
مرتين: أنا لا أستطيع وحدي أن أقاوم هذا الجمع، فيجب أن نصنع لهم ما يهدأ غضبهم ولو إلى حين.

كولومب (إلى البحارة): إذن افعلوا ما أقول لكم وأطيعوني ثلاثة أيام فقط.
فينشنته: لا، ولا دقيقة واحدة، لا بد من قتلك فاستعد للموت.

الجميع: الرجوع، الرجوع.
مرتين: لا بأس أيها الرفاق من مجاهدة ثلاثة أيام أخرى.
فيراندو: كولومب كذاب مماطل، فهو يعلننا بالرجوع ولم يصدق، قال إنه رأى الأرض، وكل ذلك كذب وخداع.

ألفونس: تطلب منا ثلاثة أيام فلا بأس، ولكن اكتب على نفسك شرطاً ليكون بيدنا حجة عليك نطالبك به في اليوم الثالث.

كولومب (إلى أخيه): إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون، خذ يا مرتين ورقة وكتب:

صح تعهدنا إلى بحارتنا بالرجوع بهم بعد ثلاثة أيام من تاريخه إذا لم نكتشف أرضاً أو ما يدل دلالة لا ريب فيها على قرب وجود الأرض، ونشترط عليهم أن يطيعوا الطاعة الكلية لأوامرنا.

حرر نهار الاثنين في ١١ آب سنة ١٤٩٢

(ثم يأخذها ويوقعها.)

كولومب: أسرّتكم هذه الشروط؟ خذوها وارجعوا إلى أعمالكم.

كريستوف كولومب

الجميع (وهم خارجون): الرجوع بعد ثلاثة أيام.
كولومب: اذهب يا برتلمائوس، وترقب ما يفعل هؤلاء العصاة.

المشهد الخامس

كولومب (وحده):

ولأنتَ عوني إن طغَا أعواني	ربَّاه عينُكَ في الدُّجى ترعاني
أني فعلتُ مشيئةَ الرحمنِ	ثأروا عليَّ كأنهم لم يعلموا
بك عاديَاتِ الدهرِ والأزمانِ	أصليبَ ربي أنتَ ترسي أتقي
فوقَ الغمارِ سفينَةَ الطوفانِ	فإذا رموني في البحارِ فأنتَ لي
أنا رابعُ الأطفالِ بالنيرانِ	أو يطرحوني في الحريقِ فأنتَني
سيفٌ صقيلُ الشفرتينِ يمانِي	وإذا أتوني بالسيفِ فأنتَ لي
فيما لقيتهُ من ضروبِ هوانِ	أو عذبوني جائرينَ فأسوتي
يا ربي احفظني من العصيانِ	ربَّاه أعواني عصوا وتمردوا

إن أملي بالنجاح كبير ولكني أخاف ثورة هؤلاء البحارة الجبناء، قد اشتاقوا إلى أوطانهم وما أمرٌ فراق الأوطان! أما أنا فأعلل النفس باكتشاف وطن جديد. هو ذا الأدلة ظاهرة؛ فعمق البحر قد أصبح قليلاً والطين ظهر على رأس المقياس، والبحارة قد عثروا على عصا مصنوعة بيد بشرية، كل هذا دليل كافٍ على اقترابنا من اليبس، ولكن إذا طال الأجل عليّ ثلاثة أيام فماذا أصنع بهم يا ترى؟ لا شك أنهم يقتلونني، ربَّاه منك الفرج في اليوم الثالث إذا لم يكن قبل، هو ذا الريح تختلف في كل ساعة وهذا دليل جديد.

المشهد السادس

(كولومب - البحارة كلهم)

(يقرع الجرس يدخل البحارة).

كولومب: أيها الإخوان، أبشركم بأننا سنبلغ الأمنية هذه الليلة، وننال ما نتمناه، فاشكروا الحق سبحانه وتعالى؛ لأنه رافقنا في مسيرنا ولم تعكر كأس راحتنا التقلبات الجوية، تأكدوا ما أقوله لكم ولا يخامركم أدنى ريب في كلامي، غدًا متى عدتم إلى أوطانكم سيرونكم ويقولون هؤلاء قد افتتحو العالم الجديد، وبهذا تخلّدون لكم ذكرًا لا يُمحي.

الجميع (يهزون رءوسهم ويضحكون): تمليق، خداع.

كولومب: سترون أيها الرفاق عما قريب فانهبوا إلى أعمالكم وتذكروا أن الملكة وعدت من يرى الأرض أولًا بجائزة ٣٠٠ ليرة، وأنا أعد أيضًا بطاقم من المخمل الحريري (يخرجون ضاحكين).

خرجوا ضاحكين مستهزئين ربّاه كذبهم، فلندعهم وشأنهم ونرصد الحركات، آه إني أرى النور، نورًا يختفي ويظهر، آه ما أجمل النور! غدًا إن شاء الله سأرى العالم الجديد (يطلق مدفع) ما هذا الصوت؟ صوت مدفع، أثار القوم؟ أسمع أصواتًا، ماذا يرددون؟ (مدافع تدوي وأصوات تردد) الأرض، الأرض.

كولومب: رباه! قد رأوا ما رأيت، إذن لم يخطئ ظني. (ينطرح على الكرسي) فيسمع أنغامًا موسيقية وأصواتًا تردد هذا النشيد:

هُبُّوا هَا قَدْ لَاحَ الْفَجْرُ وَأَتَى مِنْ فَايِدِنَا النَّصْرُ
قَابَلْنَا بِالْعِزْمِ الْأَخْطَارَا وَرَكِبْنَا لِلْفَتْحِ الْأَبْحَارَا
وَبَلِغْنَا بِالْجِدِّ الْأُوطَارَا يَا مَوْلَى الْأَكْوَانِ لَكَ الشُّكْرُ

ألفونس (يدخل ويركع أمام كولومب قائلاً): مولاي، قد رأينا الأرض، أسمع رفاقي يغنون ويترنمون.

كولومب (يسقط راکعًا على ركبتيه، وبعدما يقبّل الأرض ينظر إلى السماء ويقول):
قد رأيتها يا كولومب كما رأى موسى أرض الميعاد، سأدخلها بإذنك يا الله، لم تعد حاجة
في نفس يعقوب.

(يسدل الستار)

القسم الثاني

(يمثل الملعب جزيرة سان سلفادور والهنود متفرقة فيها وكل منهم يعمل عملاً.)

المشهد السابع

(كولومب وأتباعه)

(تعزف الموسيقى من الخارج وتدوي المدافع فتظهر على الهنود علامات الجزع
ويتساءلون بالحركات، ثم يهتف البحارة من الداخل):

هُبُّوا ها قد لاحَ الفجرُ وأتى من ربِّكم النصرُ
نجحتْ بالصبرِ مساعينا وزهتْ كالبدْرِ أمانينا
وبواترنا ومواضينا إن سُلَّتْ يلتفتِ الدهرُ

(ولا ينتهون من هذا حتى يدخلوا يتقدمهم كولومب في يده اليمنى سيفه
مشهرًا، وفي اليسرى الراية المنشورة على رمح طويل فيتفرق الهنود مذعورين
إذ ينظرونه، أما هو فلا يكاد يظهر على الملعب حتى يهتف):

هذي هي الدنيا الجديدةُ فادخلُوا فلقد بلغنا الفوزَ والأمالاً

(ثم يضع سيفه أمامه على الأرض ويغرس الراية في الأرض بسرعة ويركع
مستندًا عليها ويقول: «سيطلق على هذه الجزيرة منذ الآن اسم المخلص
الفادي.» يركع الجميع حوله ويغرس مرتين راية الصليب، وبعد قليل ينهضون
ويرددون النشيد على الموسيقى):

الفصل الثاني

هُبُوا هَا قَدْ لَاحَ الْفَجْرُ وَأَتَى مِنْ فَادِينَا النَّصْرُ
فَلَيْسَلْمُ قَائِدِنَا الْأَكْبَرُ كُولُومِبُ وَطَالَعَهُ الْأَنْوَرُ
سَتَظَلُّ مَأَثَرُهُ تَشْكُرُ وَبِهَا لِلْإِسْبَانِ الْفَخْرُ

(بعد الانتهاء من النشيد يقف كولومب شاهراً سيفه بيده ويقول):

فباسم فردينان تصبح ملكنا
ستحدث الأدهار عنا بعضها
طفنا البلاد بهمة نهضة
ومشى على هام الغمار سفينا
لعب المشيب بمفرقي من كثر ما
كولومب هزه جميع أبناء الوري
لكن أتاني من لدن رب العلاء
سيرى على الأيام ذكرى خالد
سيعظم المتنورون مآثري
قد جئت ما لم يأت فيه فاتح
هذا الصليب لقد غدا لي منقدا
ولذاك أرفعه على هام الربي

هذي البلاد وباسم إيزابلا
بعضا ويفخر جيلنا الأجيالا
تستصغر الأرزاء والأهوالا
يا من رأى فوق الغمار جبالا
لاقيت أهوالا وذقت مطالا
وغدا إلى أقصى الجنون مشالا
نصر مبين يفحم الجهالا
وسينحني التاريخ لي إجلالا
وسينصبون لهمتي تمثالا
وفعلت فعلا يعجز الأبطالا
من شدتي سبحانه وتعالى
وهو الذي يولي البلاد كمالا

(يرفع الصليب على رابية تعدد لذلك قبل كشف الستار، ثم ينقل الراية من موضعها في أرض الملعب ويرفعها قرب الصليب المقدس ويقول):

يا راية الإسبان رفي واحرسي الـ
فجميغنا بظلال مجرك نحتمي
هذي بلاد طالما حنت إلى الـ
فظفرت فيما أشتهي بعد العنا
كون الجديد ونؤليه جمالا
ونفاخر الأمراء والأقيالا
حظوى بها عيني وذقت نکالا
وملأت تاريخي أسى وفعالا

فيراندو:

مولاي عفواً عن تمرُّدنا فقدَ
فالخوفُ أفقدنا الرشادَ ودهرنا
كنَّا حيارى نختشي الأجالا
قد شكَّ ما بين الضلوعِ نصالاً

ألفونس:

فاغفرْ لمنْ أخطأ إليك فرُبنا
في ذاكِ يقضي فاذكرِ الأقوالاً

مرتين:

وأنا على قدميك ذُلاً أنحني
مُستغفراً عما أتيتُ ضلالاً

الجميع:

وجميعنا مستغفرون ...

فينشنته:

... .. وطالبون
الصَّفحَ فاصفحْ واذكرِ الأمثالاً

كولومب:

لا تجزَعوا أنا صافحُ عما مضى
فادعوا إلى الملكِ الأجلِّ فذاك قدُ
وتذكروا أبداً مليكتكم على
لولا حميتّها وفَيْضَ سخائِها
إن الكريمَ بصفحه يتعالى
أحيا البلادَ عدالته ونوالاً
كرُّ الدهورِ فمجدها ما زالاً
لم نكتشفْ فلتحي «إيزابلا»

الجميع: فلتحيّ إيزابلا.

مرتين: بل قولوا أيها الإخوان: فليحيّ الأميرال، فليعيش نائب الملك، فليعيش كولومب.

الجميع: فليحيّ الأميرال، فليعيش نائب الملك، فليعيش كولومب.

فينشنته: اركعوا أيها الرفاق أمام قائدكم الأعظم، وأقسموا له يمين الصدق والأمانة

والطاعة.

الجميع (يركعون ويقولون): نحن الإسبانيين نقسم أمام الله في هذه البلاد الجديدة

إيمان الصدق، والأمانة، والطاعة للقائد الأكبر ونائب الملك كريستوف كولومب.

كولومب: انهضوا أيها الإخوان، بارك الله فيكم، واشكروه على جوده علينا بالتوفيق

والسلامة.

(ينهضون.)

المشهد الثامن

المذكورون: الآن قد أصبح من أقدس واجباتنا أن نلاطف هؤلاء البشر التائهين في

بيداء الهمجية الغارقين في بحار من التوحش، علينا أن نلاطفهم لنطلع منهم على أسرار

هذه البلاد الخصيبة، الغنية بمعادنها وتربتها الذهبية (تظهر رعوس الهنود من بين

الكواليس) تقدموا أيها الإخوان، تعالوا نتعارف فقد طال الزمان على تفرقنا تعالوا تعالوا

(يشير بيديه ببشاشة) يدخل الهنود بجزع وخوف مندهشين معجبين بهيئة الإسبانيول

ويقتربون منهم وخصوصاً من كولومب ويلعبون بلحاهم.

كولومب: أه ما أجمل هذه السذاجة! ما أطيب هذه القلوب!

ألفونس: إذا ارتقى هؤلاء القوم فإنما هم غرس أفضالك.

كولومب: إن هذه الأرض أقرب إلى الرقي من سواها؛ نظرًا لوفرة ثروتها، وستظهر

لك الأيام ما أقول.

مرتين: لا ريب في كلامك يا مولاي.

(الهنود يظهرون حركات مضحكة.)

فينشنته: فلنطلق مدفعًا يا مولاي، لنرى ماذا يصنعون.
كولومب: لا بأس، أطلقوا المدافع (يطلق مدفع في الخارج، فترتعد مفاصل الهنود، ويخرون على الأرض راكعين).
كولومب: لا تخافوا لا تخافوا (يصنع إشارة اطمئنان بيديه ببشاشة فينهض الهنود) لا أراكم الله أيها الإخوان مثل هذه الآلات، آلات الدمار والبوار.

عند هذا ترجع الحركات المضحكة فيهددهم الإسبان مرايات، وإبرًا، وملابس، وأشياء زجاجية، ويهددهم الهنود من الأقراط التي في آذانهم، وسبائك الذهب والأثمار وغير ذلك. ثم يأخذ كولومب يسألهم عن محال وجود تلك الأشياء الذهبية، فيشيرون إليه أنها توجد في الجهة الجنوبية).

كولومب: سنسافر إلى تلك البلاد إن شاء الله، ونعود إلى الملك ومعنا هدايا كثيرة من مال ورجال وحيوانات، اذهب يا مرتين ويا فينشنته وانصبا شرع السفن واستعدا للذهاب، فقد أتينا للعمل لا للتواني والكسل.

(يسدل الستار)

القسم الثالث

(يمثل الملعب جزيرة هايتي التي سماها كولومب إسبانيولا).

المشهد التاسع

(كولومب - فينشنته - ألفونس - غوانا غراي - ليف البحارة - سبعة هنود)

فينشنته: مولاي، قد جلنا واكتشفنا بلادًا كثيرة، فماذا تريد أن نصنع فقد حان للغريب أن يعود إلى بلاده؟

كولومب: تعلم أيها الصديق وتعلمون جميعكم كم اكتشفنا من الجزائر، وكم كان سرورنا عظيمًا باكتشاف الجزيرة رسميًا، وكيف رأيتم من بساطة رجالها ودمائة أخلاقهم وحضور ملكها ونجله إلينا، واستقبالنا لهم واستعلامنا عن محل الذهب، وهؤلاء هم الذين أخذناهم من رجالها (يشير إلى الهنود) لنذهب بهم إلى إسبانيا، وكيف تركنا

الفصل الثاني

صديقنا مرتين وذهب وحده ولا ندري ماذا يقصد، وكيف وصلنا إلى هذه الجزيرة هايتي ورأيتم بأمر عينكم خصبها وجمالها، وكم أثرت بكم أنغام بلابلها وتسميتنا لها بإسبانيولا؛ لأنها قريبة الشبه لبلادنا، وكيف تفر منا رجالها ولم نتمكن من استمالة قلوبهم إلينا إلا بواسطة تلك الابنة التي وجدناها فأكرمناها وأعدناها إلى وطنها فحدثت بما سمعت ورأت من أطفانا، وكيف وصلنا إلى ميناء سان توما وكيف استقبلنا الملك غوانا غراي وأهدانا الهدايا الجزيلة، وقد رأيتموه أيضًا ومعه رجال حاشيته، وكيف زار سفننا وكان شديد الإعجاب بها ويحترمنا كألهة سمويين.

وأذكر أيضًا وتذكرون غرق سفينتنا العظمى «سنتا ماريا» وكيف تمكنا بمعاوضة ملك الهنود من حفظ الأشياء التي بها، وكيف ذلك الملك جمع لنا كثيرًا من سبائك الذهب، أه إن غرق السنثا ماريا أذاب قلبي.

فينشنته: نعم، إن تلك مصيبة عظيمة.

كولومب: ولو كنت فعلت فعل مرتين لكنت الآن وحدي أعجز عن الرجوع إلى إسبانيا، فشكرًا لك على أمانتك.

بينزون: لا شكر على الواجب يا مولاي.

كولومب: والآن فأنا سأعود إلى إسبانيا وأغادر بعضكم هنا أيها الرفاق ونفسي في أشد الحزن لمبارحتكم.

(يدخل ملك الهنود).

(كولومب يبدي إشارة عزمه على الذهاب وبقاء بعض الإسبان فيسر الملك بهم سرورًا، ويخاطب رفاقه بالأمر فيسرون ويفرحون والملك يطلب من الأميرال أن يساعده على قهر بعض الهنود فيجيبه الأميرال، ويظهر له قوة المدفع فيشكره الملك ويرفع تاجه عن رأسه ويضعه على رأس كولومب، فيقدم له كولومب عقدًا ثمينًا، وخاتم فضة، وبدلة حمراء ثم يقول لرفاقه.)

كولومب: أيها الرفاق أفارقكم إلى حين إلى إسبانيا، وأشرح لأهلكم عن سروركم، وأعرض للملك شفاهًا عما رأينا وأعود إليكم بعد حين إن وفق الله، فاتحدوا واخضعوا لرئيسكم ديا كورانا، وإذا مات لا سمح الله يقوم مقامه بياترو غونا، ثم رودريغو فكونوا منتبهين إلى واجباتكم واتحدوا فأنتم بين قوم متوحشين، كونوا كالإخوة ولا يفرقكم

كريستوف كولومب

الطمع، ولا تغادروا بعضكم كما غادرني مرتين، وأنتم أيها الرؤساء احتملوا مرءوسيكم، وليكن لكم شبه بي أنا، وتذكروا ما لقيته منكم في عرض البحر.

ألفونس: مولاي لا تذكر الماضي.

كولومب: ربما نفعت الذكرى يا ألفونس، وفي الختام أوصيكم بتعظيم الملك غوانا، ولا تنكروا جميله (يشير إليه بابتسام) وأنت أيها الملك تعال فأودعك (يقترب من ملك الهنود ويصافحه، والباقون يصافحون بعضهم بالعويل والنحيب).

(وهكذا يرخي الستار.)

الفصل الثالث

القسم الأول

(يمثل الملعب قصر الملك فردينان في برسلونة.)

المشهد الأول

(الشعب - رودريغز (خطيب الشعب) - دومينيك - فينسان)

(ينكشف الستار عن شعب يضح وخطيب يعلو منبرًا.)

رودريغز: أيها الناس، إن جراحكم لم تندمل بعد، لقد لقيتم في الأندلس ما تنحني تحت أثقاله الجبابرة، أموالكم جُمعت لتنفق على الحرب، ونفوسكم أزهقت في تلك الهجاء، من لم تصبه هذه الحرب بأسهم فليرشقني بسهم، لا أحد يجرؤ على ذلك لأن كلاً منا مصاب، الصغير والحقير والسيد الخطير، إذن لماذا تصبرون على جور ملككم وتنامون على الضيم؟ قلبوا صفحات تاريخ الرومان وانظروا كيف سقطت رءوس الملوك الظالمين، أما رأيتم رأس يوليوس قيصر كأنه أكرة تدرج على تراب الأرض التي جبلها بالدماء؟ إن يوليوس قيصر ليس بأظلم من ملككم فرديناند، فليسقط ذلك الطاغية لتكفي البلاد شره.

الشعب: فليسقط.

رودريغز: أي ملك جنن هذا الملك؟! يحاول أن يكشف عالمًا جديدًا، يا له من حلم مزعج! إذا كان عاهلاً فليحم ملكه، قد استأسد لما انتصر على العرب، واشتد الطمع بقلبه، فتاق إلى اكتشاف العالم الجديد، أه إن الطعام يقوي شهوة النهم، ولكنني أخاف أن يبلغ به الجوع أقصاه فيفترس الرعية، فتعاضدوا إذن واجتهدوا أن تطرحوه في مهاوي العدم.

أيها الشجعان، إنني أخاف أن أهيج عواطفكم بهذا النبأ الهائل، قد كنت من زمان أبين لكم شطط الملك وخصوصاً عند سفر كولومب، ولكنكم لم تثبتوا في المقاومة، والآن أقول لكم: إن السفن الإسبانية قد زهبت فريسة الأمواج واللجج، وأصبح إخوانكم مضغة في أفواه حيتان البحار وأسماكها.

الشعب: (صياح وصراخ وضجيج.)

رودريغز: لا تعولوا ولا تنوحوا فنحن رجال خلقنا للتجدد والصبر، والنساء للبكاء والنوح، خلوا الندب إلى غير هذا الحين، وأما الآن فابدءوا بأخذ الثأر، فلنكل لمليكننا بالكيل الذي كال لنا به ليعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون. إن إرادة الشعب سور لا يدك إذا كان مؤسساً على صخور الاتحاد فاتحدوا، ومهما طلبتم تحصلوا عليه ولو كان تاج الملك. إن الشعب قوي وأنتم ذلك فكونوا أقوياء، أتريدون الفوز والنصر؟

الشعب: نعم، نعم.

رودريغز: فاصرخوا إذن من أعماق قلوبكم، نريد الملك، أين الملك؟

الشعب: نريد الملك، أين الملك؟

(يشير الخطيب بيده ليعيدوا.)

الخطيب: طالما كان وقع هذا الصوت أشد من وقع المدافع على أركان العروش، طالما زعزع أركانها وتركها قاعاً صفصفاً وترك التيجان محطمة تحت أرجل الثائرين، أفهمتهم؟ إذا أتوا لمقاومتكم برءوس الحراب فقولوا لهم: ما أحلى الموت في سبيل مقاومة الظلام! وإن يوم المظلوم أشد هولاً من يوم الظالم على المظلوم، إلى الآن لم يجبنا أحد، فاهتفوا نريد الملك نريد الملك.

الفصل الثالث

الشعب: نريد الملك، نريد الملك (ويسكتون).
رودريفز: لا تسكتوا حتى يأتي لمخاطبتكم، أو يرسل من يسألكم عما تطلبون.
(يرددون).

(عند هذا يظهر الحاجب ويدخل ما بين الشعب.)

المشهد الثاني

(الحاجب والمذكورون)

الحاجب: ما هذا الصراخ وماذا تريدون؟
الشعب: نريد الملك، نريد الملك.
الحاجب: إن الملك نائم فلا تقلقوه بصراخكم أيها الناس، اسكتوا لئلا يغضب،
وويل لكم إذا غضب.
فينسان: نحن لا نبالي بغضبه، وقد أتينا لنطالبه بدمائنا، برجالنا التي طرحها في
البحر فريسة للمخاطر، أفهمت ماذا نريد؟
الحاجب: الملك نائم الآن.
رودريفز:

نامت عيونك والمظلوم منتبهُ يدعوك عليك وعين الله لم تنم

اذهب أيها الحاجب ونبه مولاك، قل له أن ينتبه لصراخ الشعب، ويسمع مطالبهم،
فالشعب أسد كاسر والويل لمن يثير هذا الأسد! قل له أن يخرج من فراشه الناعم قبل أن
يزحف عليه هذا الجمع، فيظل راقداً فيه رقاداً أبدياً.
الحاجب: لقد تجاوزتم حدود الآداب فاسكتوا، وإلا دعوت الجنود لتفريقكم في
الحال، هكذا أمرني الملك.

دومينيك: ويحك يا خائن! نحن لا نخاف الوعيد، قد اجتمعنا هنا بإرادة الشعب، ولا نتفرق إلا على رءوس الحراب، فاسكت وإلا قطعتك شطرين بحد هذا المهند، أيها الشعب، دونكم هذا الوغد وأخرجوه بالقوة.

(الشعب يهجم.)

رودريغز: مهلاً أيها الإخوان، لا تشتموا الحاجب فما هو إلا رسول جاء يبلغنا مشيئة الملك، وما على الرسول إلا البلاغ، اتركوا الرسول ولا تلتطخوا يديكم بدمه، عُد أيها الرسول وقل لمولك إن الشعب لا يعود ما لم يرهُ، الملك أب، وعار على الأب أن يضع حاجباً بينه وبين بنيه.

(الحاجب يخرج.)

الشعب: أبُّ قاسٍ، أبُّ ظالم.

رودريغز: أيها الإخوان، احذروا أن تشتموا الملك قبل أن يبدأ بشتمكم، دعوني أخاطبه وحدي وحيوه عند دخوله التحية المعتادة، أفهتم ما أقول؟

الشعب: فهمنا، فهمنا.

فينسان: هو ذا الملك أقبل.

(يدخل الملك.)

المشهد الثالث

(المذكورون - الملك - رسول)

الملك: ما بالكم تضجون؟ وما هذه الثورة؟

رودريغز: مولاي، إن المصائب التي أهدقت بنا هي التي تثور في داخلنا، إن موت أهلنا في الحرب يشب في صدورنا حرباً داخلية، الحرب سبب شقائنا.

الفصل الثالث

الملك: الحرب عادلة أيها الرجل، من منكم يسكت عن رجل يعتدي عليه، وينقب بيته أمام عينيه، إن من يدافع عن نفسه لا يعد مفترياً ولا ظالماً.

رودريغز: قد كانت الحرب ضربة قاضية على سعادة هذا الشعب، وجاء ضعفاً على إِبَالَةٍ اكتشف العالم الجديد، ثار هؤلاء الناس عندما سمعوا بهلاك ذويهم وغرق السفن، ومن لا يتأثر لمصاب ذويه؟! إن الوحوش تتأثر لبعضها، فكيف الإنسان؟!
الملك: لا أيها الناس، إن السفن لم تغرق.

فينسان: بلى، غرقت يا مولاي.

الملك: وهب أنها غرقت، فماذا تطلبون مني؟

رودريغز: نطلب إغاثة العيال المنكوبة، فلكل بحري قوم عيال عليه.

الملك: ما هذه الجسارة والوقاحة؟! شعبي يأمر عليّ كأني المملوك وهو الملك، لا غرامة عندي فافعلوا ما تريدون. جنودي، أخرجوا هؤلاء الناس من باحة القصر.

(يظهر الجنود حركة.)

رودريغز: الجنود إخوتنا أيها الملك، وهيهات أن يقتل الأخ أخاه المظلوم (تطلع المدافع) (الشعب يضح خائفاً) ماذا جرى؟ ما هذه المدافع؟ أثار القوم على العسكر؟ رباه أنقذ عرشي من الخطر.

(يدخل رسول.)

رسول: مولاي، لك البشرى، وصل كولومب إلى ميناء بالوس.

الملك: ربّاه! الآن حلّ الفرج.

الشعب: لا نصدق، حيلة، خداع.

دومينيك: أنت كاذب أيها الرسول، وبشارتك خديعة لنا.

الرسول: ألم تسمع إطلاق المدافع، فهي ترحب بكولومب.

رودريغز: إذن اتبعوني أيها الإخوان، ولا يصعب علينا أن نعود.

(يخرجون.)

المشهد الرابع

(الملك - الملكة - الكريدينال - ستنجل - ألونزو - المرشد)

الملك (يجلس على كرسي): ما أقوى الشعب! إن سلطته قوية قاهرة، أصحيح عاد كولومب؟ لا ريب في ذلك، ومن يكذب على الملك؟ ولكن كيف كان الأمر؟ فمسألة كولومب سببت لي أعظم القلاقل، فإذا عاد ظافراً بما قال عقب علقم الأهوال شهد الفوز بالغنيمة، وإذا كان هلك من معه فمن ينجيني من ثورة الشعب؟ أه إن المركز حرج!

(تدخل الملكة والكريدينال وستنجل وألونزو والمرشد والحجاب.)

الملكة: قد عاد كولومب.

الملك: إذن الخبر صحيح، ما أشد كرمك يا الله!

(رسول يدفع للحاجب رسالة.)

حاجب: مولاي، هذه الرسالة دفعها إليّ رسول جاء من قبل كولومب.

الملك (يقرأ الرسالة)، (إلى الملكة): قد عاد كولومب ظافراً فمرحّباً به، قد اكتشف العالم الجديد، وما أعظم هذا الاكتشاف! وإليك رسالته.

الكريدينال: إنه غرس يديك يا مولاي.

ستنجل: وثمره اهتمامك واجتهادك يا سيدتي.

المرشد: الآن فرحت نفسي بنجاة شعبي، ألا تسمح لي مولاتي لأبشر في تلك البلاد.

الملك: أعدوا ضروب الاحتفال لنقابل هذا الفاتح العظيم، فقد اكتشف البلاد دون أن يسفك نقطة دم، إنه لأعظم من الملوك وأقوى من الفاتحين، اخرجوا أيها الأمراء إلى ملاقاته إلى ظاهر المدينة، فهو جدير بكل احترام ووقار، عظّموه وكرّموه فهو سيخدم الدين والإنسانية أعظم خدمة.

الملكة (من بعد ما يخرج الجميع): أيسمح لي مولاي أن أخرج معهم إلى استقباله؟

الملك: لا أيتها الملكة، وإن كان هذا مما يستحقه، فالمقام لا يسمح لنا بذلك، ولكننا لا نبخسه حقه في هذا المقام، سنكرمه ولكن بدون أن نخرق حرمة تقاليد الملوك وعاداتهم.

(يرخى الستار)

القسم الثاني

(قاعة الاستقبال في قصر الملك (ثلاثة عروش).)

المشهد الخامس

(الملك - الملكة - كولومب - ألونزو - ستنجل - الكردينال -
المرشد - أنتوان - دياكو الابن)

جندي: قد أقبل الجماعة ومعهم كولومب.

(تعزف الموسيقى وتدوي المدافع ثم يدخل كولومب.)

كولومب: سلام أيها الملك (يهمُّ بالركوع فيأخذه الملك بيده ويقول):

الملك: اجلس عن يميني يا كولومب يا أميرال البحر والبر، فأنت جدير بمقام الملوك. إن مأتبك تعجز عنها سطوة السيف، وتنحني أمامها أبهة الملك، إن الرجل بدماعه لا بماله ومجده، وعلى الملوك أن يعظّموا أصحاب الأدمغة الكبيرة، فبهؤلاء ركن المملكة وزينتها كما أن الجيش سياجها، لقد عدت يا كولومب وعلى رأسك إكليل غار الظفر، فأهلاً وسهلاً بك أيها المكتشف، بل الفاتح الأعظم.

كولومب: لقد كنت يا مولاي سبب هذا الاكتشاف، ولولا عنايتك لم يكن شيء مما كان، فعلى الأجيال والدهور أن لا تنسى نعمتك عليّ، وعلى الأحقاب أن تطوّب جلاله الملكة إذ لها في تلك المساعدة اليد الطولى.

الملكة: إن ثمرة الاكتشاف تعزينا على أتعابنا، وتكفيننا سخرية الأجيال الآتية، فشكرًا لثباتك العظيم يا كولومب.

الملك: هات حدثنا بما نظرت وسمعت أيها القائد.

كولومب: قد بسطت لجلالتكم في الرسالة تفاصيل رحلتي من إسبانيا إلى حين الاكتشاف، وما صادفته في البحر من المخاطر، وهذه الجريدة أدفعها إلى جلالتك تطالعها على مهل، والآن أبسط على مسامح جلالتك ما اعترضني من المخاطر في رجوعي من العالم الجديد إلى إسبانيا؛ فإن الخطر كان أشد وأعظم!

في اليوم الرابع من شهر كانون الثاني سنة ١٤٩٣ غادرت العالم الجديد، بعد وداع رفاقي وحضهم على الاتحاد، ولم يبق معي غير سفينة ذرية؛ لأن السنّا ماريًا قد غرقت،

وسفينة البانثا قد سافر بها مرتين ألونزو وغادرني وحدي. وبينما نحن نخترق العباب إذا بسفينة تلوح عن بعد ولم تكن غير سفينة مرتين، فاعتذر بأن الريح حملته على مغادرتنا، وكان قد أحضر معه ستة هنود قصد التجارة بهم فأطلقت سراحهم؛ لأنه من العار أن يتاجر الأخ بأخيه، فاغتاظ مني غير أنني لم أبالِ بذلك، فسرنا حتى بلغنا جبال السيفاي وكان قوم تلك الجبال متوحشين فحاربناهم؛ لأنهم لم يسلموا فخضعوا أخيراً للقوة.

وفي الثاني عشر من شباط اشتدت الأنواء فتقطعت الحبال وأوشكت السفن أن تغرق فأخذنا نصلي ونبتهل، وكأن الله لم يستجب، ولم يكن حزني على حياتي، بل لأنني أموت ورفاقي ولا تعلم إسبانيا باكتشافاتي، فانفردت بمخدعي وأخذت قلماً وقرطاساً وكتبت باختصار ما اكتشفته من البلدان وخططت الطريق، ثم وضعت تلك الورقة في نسيج ومسحته بالشمع، وعنونته باسم جلالتك وجلالة الملكة، وعيَّنت إلى من يوصله إلى جلالتكما جائزة ألف ليرة، ثم وضعت في برميل وطرحته في البحر، وما زلنا على تلك الحال حتى الصباح، ففتشت على البانثا فلم أجدها فحسبت أن الأمواج قد افترستها، وبعد ثلاثة أيام كلها خطر ومخاوف وصلنا جزيرة من جزائر مملكة البرتغال تدعى سانتاماري، ولما عرفت أن كنيسة تلك الجزيرة على اسم العذراء أمرت رفاقي بالذهاب لزيارتها، فذهبوا ولكن طالت مدة غيابهم، ومنعني ألم في جنبي عن الذهاب معهم، وبعد يومين بلغني أن رفاقي في السجن بأمر حاكم الجزيرة، فكتبت إليه أسأله إطلاق جماعتي باسم جلالتكما، وإذا لم يفعل هدمت أسوار المدينة، فخاف الحاكم إذ ذاك وأرسل معتمدين من قبله ليطلع إذا كنا إسبانيين فعرف ذلك من أوراقي وأطلق الأسرى، وما غادرنا تلك الجزيرة حتى هاجت الرياح ثانية وأخذت البروق والرعود تتعاطم حتى رأينا الموت أمامنا، وتهيأنا لمبارحة هذا العالم، ولكننا صباح النهار الرابع من آذار رسونا قرب مدينة دوستيلو فأقبل سكانها يهتئونا بالسلامة؛ لأنهم كانوا رأوا الخطر الذي أحدق بنا، ثم أرسلت ألتمس من ملك البرتغال أن يسمح لي بترميم سفينتي في ليسبونا فسمح لي بذلك، وقابلني بكل هشاشة وبشاشة وسرَّ جداً بهذا الاكتشاف وتندَّم لأنه لم يساعدي وعرض عليَّ أن أسافر برًّا على نفقته فرفضت ذلك، ثم برحت المدينة في الثالث عشر من آذار حتى وصلت إلى ميناء بالوس في الخامس عشر منه، بعدما غبت عن وطني أيها الملك سبعة أشهر ونصف شهر قضيتها بالأخطار والمخاوف.

(مرتين ألونزو قادته الأنواء إلى ميناء «بيسكاي» في فرنسا، وإذ حسب أن كولومب غرق أرسل إلى الملك يخبره عن الاكتشافات، ولما وصل إلى ميناء بالوس شاهد سفينة

الفصل الثالث

كولومب فتكدر كثيراً، وخرج سراً إلى بيته، وأخذ ينتظر جواب الملك فأجابه يحظر عليه التوجه نظراً لسوء سلوكه، فساءه جداً هذا الجواب، وأصيب بمرض عضال فقضى نَحْبَهُ.)

الملك: إن مرتين وصل اليوم، وكتب إليّ يطلب مواجھتي فرفضت؛ وذلك لأنه خانك.
الكردينال: طوباك يا كولومب، ما أعظم جهادك!

ستنجل: لقد حققت آمالنا أيها الأدميرال، فلك منا جزيل الشكر.

المرشد: إن العلماء سُرُج الأزمنة، فهنيئاً لإسبانيا بك يا سراجها الوهاج.

(يدخل دياكو.)

دياكو: أبي أنت هنا، آه ما أحب لقياك يا أبي!

كولومب: وما أطيب مرآك يا ولدي تعال أضمك إلى صدري، فقد كنت رفيقي في شقائي وتعاستي، وستظل شاهداً على أعمال أبيك مدى الحياة.

أنتوان: كولومب، أنا لا أصدق أنك اكتشفت عالماً جديداً، فأين هي العلامات التي تؤيد كلامك؟ أظهرها للعيان إن كنت صادقاً.

الملك: يقول المثل: «إذا قدمت من سفر فأهد أهلك ولو حجر.» إن سميرنا يحب المجون، ويريد أن يرى محتويات العالم الجديد، فماذا أحضرت معك؟

كولومب: معي أربعة من الهنود، وسبائك كثيرة من الذهب.

المرشد: وأين هم الآن يا كولومب؟

كولومب: الهنود خارج القصر، أتأمر بإحضارهم يا مولاي؟

الملك: أحضرهم أمامي (يخرج جنديان) والذهب أين هو؟

كولومب: في ميناء بالوس ضمن مائتي صندوق.

(يدخل الهنود ويندهشون من منظر القصر والملك ويظهرون حركات الاستغراب.)

الملك: يا لك من رجل عظيم! لا بد أن تكون تعبت فاذهب للاستراحة فقد أمرت أن يعدُّوا لك غرفة ضمن قصري أيها الأدميرال، وسنقابلك ثانية بعد المداولة مع الوزراء.

(كولومب يخرج.)

كريستوف كولومب

المشهد السادس

(المذكورون إلا الهنود وكولومب وولده)

الملك: ما رأيك أيتها الملكة؟ ما رأيكم أيها الوزراء في مسألة كولومب؟

الملكة: علينا أن نحمد الله فهو ولي التوفيق.

الملك: ذلك لا حاجة إلى تذكيرنا به أيتها الملكة، ماذا تظنون أن نصنع وما هي

الخطة التي نسير عليها بعد الآن؟

ستنجل: رأيك يا مولاي هو الرأي الموفق.

ألونزو: وهل بقي ريب يا مولاي في نجاح كولومب؟ يجب أن يرجع عاجلاً إلى حيث

كان ليوطد دعائم سطوتنا هناك؛ إذ لا يبعد أن يزاحمنا غيرنا على هذا العالم الجديد.

المرشد: هذا ما كنت أخشاه وأتوقعه، قد قلت ولا أزال أقول: إن العالم الجديد

سيكون سبباً للويل والدمار.

ستنجل: مولاي، إن في هذا الاكتشاف لفخراً عظيماً لإسبانيا، ودرة ثمينة يرصع

بها تاريخ مملكتنا.

الملكة: إذا كان لا بد من عود كولومب فيقتضي أن تكون معه عمارة بحرية؛ لأنه لا

بدّ أن يحتاج إليها.

الملك: نعم، لا بد من ذلك (إلى ألونزو): أصدر أيها الوزير أمراً بتجهيز ثلاثين سفينة

بكل مقتضياتها، ولتكن مستعدة للسفر متى يشأ كولومب.

ستنجل: أيّد الله دولتكم يا مولاي، إنما أذكركم برفع مقام الأدميرال تنشيطاً له

ومكافأة على أتعابه.

الملك: ذلك أمر لا بد منه، وسنرى في ذلك عند اجتماعنا به.

الكردينال: ها هو مقبل.

(يدخل كولومب ويحيي بإحناء الرأس.)

الملك: ماذا تريد أن تصنع الآن أيها الأدميرال؟

كولومب: أنا رهين الإشارة يا مولاي، أنا أكره البطالة؛ ولهذا أسرعت بالعود لتأمرني بعمل جديد.

الملك: اطلب ما تريد، فإننا نعتبر رأيك فوق كل رأي.

كولومب: عفواً مولاي، أطلب العود إلى العالم الجديد.

الملك: رعيًا لك من مجاهدٍ عظيمٍ، فليكن لك ذلك، وقد صدرت الأوامر للوزارة الحربية بإعداد ٣٠ سفينة، وها أنا أجدد ما منحك إياه من لقب الأميرال الأكبر ونائب الملك، وأزيد على ذلك وضع عائلتك في مصاف العيال الشريفة، والحق لها بالاقتران ببنات الملوك والأمراء، ولك أنت مقام الملوك والسلاطين، والحق أن تتصرف تصرفًا مطلقًا في البلاد التي اكتشفتها، وما عليك إلا أن تقرّ لنا بالطاعة والسيادة والسير بمقتضى العهود المحررة ما بيننا.

كولومب: مولاي، أنا عبد حقير لا أستحق كل هذا، ها أنا أقسم أمام الله والناس بالطاعة العمياء لجلالتكم ما دمت حيًا.

الملك: لله درك ما أصفى قلبك وأكرم أخلاقك! اقترب مني لأطبع على خدك قبلة أخوية، واذهب بسلام إلى الأرض الجديدة ولك أن تلبس بها التاج، وتحمل صولجان الملك كعادة الملوك العظام، اذهب بسلام أيها الأميرال الكبير والبطل الفاتح.

ستنجل: ما أكرم هذا الملك!

الكردينال: وما أشد تواضعه!

ألونزو: وما أعظم حبه للعلماء!

كولومب: مولاي، إنني أترامى على أقدام عظمتك ولي نعمة ألتمسها.

الملك: قل ولك ما تريد، ولو كان نصف ملكي.

كولومب: وضع هؤلاء الهنود في المدارس ليتعلموا لغتنا، وبعد ذلك يساعدوننا على التفاهم مع أقوامهم.

الملك: كل ما تطلبه يكون لك فتهيأ للسفر، غدًا ترافقك الحاشية إلى البحر، وتودّع وداع الملوك والأمراء، فاستعد للسفر.

(يرخى الستار)

كريستوف كولومب

القسم الثالث

(القاعة عينها إنما لا يكون فيها غير عرش الملك.)

المشهد السابع

(الكردينال - الملك - المرشد - أنتوان - ألونزو - دي أجيدا -

سنة إسبان - ستنجل - بويال)

(الملك جالس على العرش مطرق الرأس والغم باد على وجهه.)

الكردينال: ما بال سيدي الملك مضطرب البال حزين القلب؟

الملك: دعني أيتها الكردينال، فإن أشقى الناس هو الملك! إن أشقى البشر من يهتم بجميع البشر، ولا تسلني عن مصائبني؛ فقلب الملوك مستودع الهموم.

الكردينال: ماذا جرى؟ مولاي لا تستر عني أمرًا، فلماذا لا تجيبني؟ لماذا لا تطلعني على دخيلة الأمر؟ فلعلي قادر على إفراج كربتك.

الملك: إن مسألة كولومب كانت سببًا لقلقي، تعلم أن ثمرة أول سفرة من سفراته كانت خلافنا مع ملك البرتغال حتى تدخل في المسألة قداسة البابا، وقد سافر ثانية وكانت القلاقل ترافقه في كل سفراته، كأن الدهر كتب لهذا الرجل ألا يوفق له سعي، عجبًا! هذه هي المرة الثالثة سافر بها وهو في أشد الخلاف مع شعبنا الإسباني في تلك البلاد والحرب الأهلية تكاد تنتشب بينهم.

أنتوان: مولاي، قلت عن هذا الرجل ولا أزال أقول إنه بوم الويل وغراب الدمار.

المرشد: جل من لا عيب فيه وعلا.

الملك: قد ساد الخلاف بينه وبين رولدان الذي أرسلناه ليتولى الأمور القضائية.

ألونزو: ومن أين عرفت ذلك يا مولاي؟

الملك: من كتاب أرسله إليّ كولومب بالأمس مع الخمسة مراكب، وهو يطلب إرسال رجل يقوم مقام رولدان، وفي هذا الصباح جاء مركب سادس وفيه تفاصيل الثورة، وكتاب آخر من رولدان وأتباعه يتذمرون من سوء تصرف الأميرال واستبداده، فما العمل يا ترى؟ قد عرفت أن مبغضي كولومب كثير و العدد، فماذا نصنع يا الله؟

الفصل الثالث

المرشد: مولاي، لا تحكم قبل البحث الطويل.
الخادم: مولاي، دي أجيدا بالباب يطلب الدخول.
الملك: قل له يدخل (إلى الكردينال)، هذا الرجل قادم من العالم الجديد، ولا ندرى ماذا يحمل إلينا عن كولومب.

(يدخل دي أجيدا.)

دي أجيدا: سلام أيها الملك الأعظم.
الملك: ما عندك عن كولومب؟ وكيف حال الإسبانيول في تلك البلاد؟
دي أجيدا: إن شعبك في تلك البلاد في أتعس الحالات، ولا شقاء في الدنيا إلا نالوا منه قسماً كبيراً.

الملك: رباه ما هذا؟!

دي أجيدا: فكلومب رجل مستبد عاتٍ، والحرب الأهلية بينه وبين الشعب قائمة على قدم وساق، قابلت هناك جمهوراً غفيراً وكلهم يتذمرون ويشتكون من هذه الحال؛ فكلومب لم يدفع لهم مرتباتهم حتى أصبحوا يؤثرون الموت على الحياة، وهو يعاملهم معاملة خشنة لا يحتملها الهنود في تلك الأقطار. إن كولومب وأخويه يا مولاي لا يخرجان إلا تحت السلاح؛ نظراً لبغض الشعب لهم، ومتى بغض الشعب حاكماً فكيف يُرجى له التقدم والعمران؟!

الملك: ويلاه من هذا المصير!

ستنجل: مولاي، قد يكون في الأمر مبالغة، وقد تكون هذه الصورة مكبرة.
دي أجيدا: أنا لا أكذب أيها الوزير، وهب أنني كذاب فأمام ملكي لا أقول إلا الحقيقة فلا تهني.

ألونزو: إنه لم يلحق بك إهانة، ولكن ثققتنا بكولومب تحمل على التكذيب.
بويال: ولماذا؟ فالיום تلقيت رسالة من رولدان يقول بها إن كولومب طلب من الإسبانيين أن ينادوا به ملكاً، ولما رفضوا ذلك ساد بينهم النفور، وكان من أمرهم ما كان.

دي أجيدا: مولاي، بطر الرجل إذ رأى نعمتك الجزيلة عليه، رأى على رأسه التاج، وبيده الصولجان فطنى وتجبر.

الملك: أه ماذا أقول؟! إن المسألة من الأهمية بمكان.

(ضجة في الخارج.)

ستنجل: ما هذا الضجيج؟ ما هذه الضوضاء؟

(يدخل ستة من الإسبان بأثواب رثة قادمون من العالم الجديد.)

الستة: أين الملك؟! (يرونه) العدل الرحمة.

الملك: ماذا تطلبون؟ تكلموا.

واحد: مولاي، كولومب ظالم لم يدفع لنا مرتباتنا حتى كدنا نموت جوعًا، استبد بنا، استخدمنا كما يشاء لأغراضه، نطلب من جلالتك العدل يا مصدر الإحسان والشفقة.

آخر: سيدي، عاملنا برحمتك وحنانك.

الملك: سيكون ما تريدون، عودوا إلى بيوتكم.

الجميع: فليحي الملك، (ويخرجون).

المشهد التاسع

(المذكورون - فرنسيس بوفاديليا)

الملك: أيها الوزراء، إن أسنة الخلق أقلام الحق، ولو لم يكن كولومب كذلك لوجدنا رجلاً يمدحه، إن دوام الحال على هذا المنوال يؤدي بالمملكة الجديدة إلى الدمار، فمن الضرورة أن ننظر في الأمر، اليوم سنرسل معتمدًا إلى تلك الديار يسوي الخلاف، حتى إذا ثبت على كولومب ما نسب إليه يتولى المعتمد أزمّة الأحكام.

الكريدينال: ومن تريد أن يقوم بهذا العمل الخطير؟

الملك: سنرسل فرنسيس بوفاديليا في هذه المهمة، فاكتب له الأوامر يا ألونزو (ألونزو يشرع بذلك)، اذهب أيها الجندي وقل إلى فرنسيس أن يحضر (يخرج الجندي)، إذا كان كولومب فعل ما نسب إليه فإنه يكون ناكراً للجميل لا يعرف قيمة النعمة! وأنتم أيها

الفصل الثالث

الوزراء يجب أن تساعدوني على فض هذا المشكل، ونسأل الله أن يوفقنا إلى ما به خير المملكة.

المرشد: يا رب احفظ المملكة من كل شيء.

(يدخل فرنسيس.)

فرنسيس: ماذا تأمر يا مولاي؟

الملك: تأمر بذهابك إلى البلاد الجديدة حيث كولومب المكتشف، وبموجب هذه الأوامر تصنع. أعطه الأوامر يا ألونزو (يأخذ الأوامر من الوزير) واحذر أن تتقاد إلى الأغراض فأنا واثق بنزاهتك.

فرنسيس: سأخدم جلالتكم بكل ما أقدر عليه، فمتى تأمرون بسفري؟

الملك: اذهب الآن فالسفينه على استعداد وبها كل ما يلزم.

فرنسيس: أستودعكم الله (ويخرج).

الملك: أمثل كولومب يتجاسر أن يرفع نظره إلى عرش إسبانيا، هذا العرش الذي ترتد عنه أبصار الملوك كليله؟! سوف تنال أيها العاتي المتمرد عقاب خيانتك، أه لو أنني أستطيع أن أمد يدي إليك من فوق البحار لأسحقك سحقاً! أطمعك نفسك بالخروج على فردينان ملك إسبانيا؟! لقد صح بك قول الشاعر:

إن الزرايرَ لما قامَ قائمُها توهمت أنها صارت شواهيناً

وصح بي أيضاً قول المثل: «لا تأمن شر من أحسنت إليه!»

(تدخل الملكة.)

الملكة: ما بال مولاي شديد الغضب؟

الملك (بحدة): دعينا فأنت أصل الأمر والسبب.

(يرخى الستار)

الفصل الرابع

القسم الأول

(يمثل الملعب هيئة جزيرة إسبانيولا قرب قصر كريستوف كولومب.)

المشهد الأول

(فرنسيس (معتمد الملك) - جنود - جمهور من الإسبان - فرنان (رفيق المعتمد))

فرنسيس: إخوتي، لقد ملأت أذان إسبانيا أخبار تعاستكم وشقائكم في هذه البلاد الوافرة الثروة الغنية بخصبها ومعادنها. عجباً يحدثون عن هذه الأرض بأن تربتها ذهبية وبقعة منها ما لا يوجد في جميع خزائن الملوك. لقد أصبحت في هذه الحال:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

فوالله إن مصيركم يستنزف الدموع ويستبكي الصخور، تركتم بلادكم طمعاً بالثروة الوافرة فاشتبهتم الكسر التي تملئون بها أجوافكم، فما هذا المصير؟ وكيف تصبرون على الضيم؟ لا شك أنكم جبناء، لقد بلغ مسامع الملك أنينكم الجارح وتذمركم من تصرفات كولومب السيئة؛ فأرسلني إلى هذه الأقطار لأتولى الفحص عما أجراه ويجريه هذا الرجل حتى إذا ثبت عليه كل ما نسب إليه أدبته تأديباً يستحقه كل ظالم ناكر للجميل. اخرج أيها الجندي وأحضر دياكو شقيق كولومب.

رجل: بلساني ولسان الجالية الإسبانية أرحب بك يا من أتيت لإنقاذنا من مخالب الظلم، وبرائن الاستبداد.

فرنسيس: وقد بلغني أن كولومب قد شنق ثمانية من إخوتنا الإسبانول ولم يزل ثمانية في أعماق السجون ينتظرون الساعة الرهيبة، فهذا الأمر أروع فرائصي، يا لها من فظاعة بربرية! **أَلَيْتُمْ** تاروا عليه يطلبون قوتهم يقضي بشنقهم؟ ما هذه العدالة؟! إن نيرون لم يحلم بهذا الظلم، ولم يخطر لفرعون على بال!

رجل: قد فعل أكثر من ذلك يا مولاي ولو ...

فرنسيس: فعل ما فعل وقد أتت الساعة، ساعة الانتقام من البغاة.

(يدخل دياكو.)

المشهد الثاني

(المذكورون ودياكو كولومب)

فرنسيس: فباسم الملك فرديناند أخطبكم فاسمعوا، اقرأ يا فرنان هذا الأمر (يدفعه إليه فيقرؤه).

فرنان (يقرأ): نحن فرديناند ملك إسبانيا قد عهدنا إلى فرنسيس بوفاديليا أمر الفحص عن إجراءات كريستوف كولومب في العالم الجديد، وأمرناه أن يفعل كل ما تطلبه الحكمة ويقضي به العدل.

فرنسيس: أعرفت الآن من أنا يا دياكو وما هي مهمتي؟ باسم الملك فرديناند أمرك أن تطلق سراح المسجونين لأطلع منهم على بعض الأمور المتعلقة بمهمتي.

دياكو: إن هذا لا يكون بدون أمر من أخي، إن أخي يتجول الآن في سهول الفاغا، حيث يعمل فيما تطلبه الشروط المحررة بينه وبين الملك، فإذا شئت تكرم بصورة الأمر لأرسله إليه، ولا يبعد أن يحضر في الحال.

فرنسيس: كأنك لم تعدد بهذا الأمر، فلنشرف أذناك بالأمر الثاني فلعله يخفف من حُيلائك، اقرأ يا فرنان.

فرنان (يقراً): نحن فرديناند ملك إسبانيا، نأمر معتمدنا فرنسيس بوفاديليا أن يتولى أحكام الجزيرة إذا قضت بذلك الظروف، وعليه أن يقضي بالعدل بين شعبنا الإسباني في تلك البلاد.

فرنسيس: ألا تسلّم الآن يا دياكو؟ ألا تخرج المسجونين؟!

دياكو: لا يا حضرة المعتمد، لا أسلّم.

فرنسيس: إذن فاسمع أمراً ثالثاً، اقرأ يا فرنان.

فرنان (يقراً): نحن فرديناند ملك إسبانيا نقضي بتسليم مهام الأحكام وكل شيء مختص بالمملكة إلى فرنسيس بوفاديليا.

فرنسيس (إلى دياكو): وكيف الآن، ألم يكن حديد عزمك يا دياكو؟ أخرج المسجونين وإلا تلونا على مسامعك الأمر الرابع.

دياكو: لا أخرجهم ولو قرأت جميع أوامر الدنيا، اقرأهم، أنا الغريق فما خوفي من الليل (على حدة) أجنّ الملك يا ترى أم ماذا؟ (إلى فرنسيس) نحن نعرف أنفسنا حكام هذه البلاد، فما أنت إلا مزور يا فرنسيس! فبهيات أن تؤثّر بي أوامرك المزيفة.

فرنسيس: إذن فاسمع الأمر الرابع، اقرأ يا فرنان.

فرنان (يقراً): نحن فرديناند ملك إسبانيا نقضي على كريستوف وأخويه بدفع المتأخر قبلهم من مرتبات المتوظفين مع ديونهم الشخصية حالاً، ونقضي أيضاً على كريستوف بطاعة معتمدنا فرنسيس بوفاديليا، والامتثال لكل ما يأمره به.

فرنسيس (إلى دياكو): والآن لا تسلّم؟

دياكو: لا أرضى ولو صارت السماء أرضاً، لا أريد ولو قطعوا لي حبل الوريد!

فرنسيس: إذن تسلّم بالرغم عنك!

دياكو: كذبت في وجهك أيها المعتمد الدجّال فلا ...

فرنسيس: أتكذبني؟! ويحك يا قليل الحياء! جنودي، كبلّوا هذا اللثيم بالقيود، وأنتم يا جنود كولومب عجلّوا بالهجوم على القلعة، كسّروا أبواب السجن، أخرجوا إخوانكم المظلومين من بين تلك الجدران السوداء (يخرجون بحماس ويبقى دياكو مقيداً) وأنتم أيها الناس اشهدوا واشهد أنت يا دياكو أيضاً أنني أضع يدي على قصر الأميرال كولومب الخائن وعلى ما فيه، وأناادي على رءوس الأشهاد أنه أصبح قصري بعد اليوم، ولا أمل لكولومب وعائلته بالتولي على هذه البلاد بعد اليوم، فمن له دعوى على كولومب وأخويه فليصدّرها وأنا أسمع، خذ أيها الجندي هذا الأمر إلى كولومب وقل له يعجلّ بالحضور.

كريستوف كولومب

الشعب: فليحي العادل، فليسقط الظالم.
دياكو: بل فليسقط الخونة الغادرون.
فرنسيس: احرص يا لئيم، أخرجوا هذا الوغد واطرحوه في السجن.
دياكو:

ما كنت أحسب أن يمتد بي زمني حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

(يخرجونه.)

فرنسيس: لقد طغوا وتجبروا، وحسبوا أن عين العدل مغمضة لا ترى شرورهم وآثامهم، لقد نال دياكو عقاب تمرده وبقي كولومب، فعند حضوره سنرى، ولكل حادث حديث.

المشهد الثالث

(فرنسيس - فرنان - المسجونون - جنود)

فرنان: علام عوّلت يا مولاي في مسألة كولومب؟
فرنسيس: إلى الآن لم أجزم جزماً قاطعاً، ولكن أقل حكم هو السجن.

(يدخل جنديان.)

جندي: مولاي، قد طرحنا دياكو في السجن، والشعب قد أخرج المسجونين، وكان هزؤهم شديداً بدياكو عندما التقوا به على الطريق، وها هم آتون ورائي.
فرنسيس: إذن قد أخذوا بثأرهم منه، وسيشتمون كولومب إن شاء الله.

(يدخل المسجونون.)

سجين: اسمح لنا يا سيدي ننطرح على أقدامك ونقبّلها.

الفصل الرابع

آخر: فقد أنقذتنا من العذاب، وأرحتنا من الشقاء.
غيره: شكراً لك يا نصير العدل وعماد الرحمة.
فرنسيس: قد فعلت مشيئة ملككم العادل أيها الإخوان، قد سمعت نداء الضمير،
وشعرت بالروح أنكم مظلومون؛ ولهذا قد أنقذتكم، وعن قريب ترون كيف أعاقب الظالم
المتنرد، فادعو إذن لجلالة الملك بالنصر.
المسجونون: فليحي الملك، فليعش الملك.
فرنسيس: لماذا قضى عليكم كولومب بالسجن؟
واحد: قسماً برأس الملك، قبض علينا لأننا طلبنا قبض مرتباتنا، سجننا ليتخلص
من مطالبتنا له.
آخر: ما أمرّ ذاك السجن يا مولاي! هواؤه بارد نتن والقذارة تملأ غرفه، كأنما
صنع للانتقام والحكم بالإعدام.
فرنسيس: إن قلبي يتفطر من سماع هذه الأحاديث المفجعة.
(يدخل خادم.)

جندي: مولاي، قد أوشك كولومب أن يصل.
فرنسيس: خذ هذا الأمر إذن وبلغه إياه قبل وصوله، جنودي كونوا على حذر.
(يدخل كولومب وبرتلماوس في الباب فيدفع الخادم الأمر إلى كولومب فيقرؤه
ثم يقول.)

المشهد الرابع

(كولومب - فرنسيس - برتلماوس - مرتين (خادم كولومب))

كولومب: وهنت قواي، خانتني ركبتي، ماذا أرى؟ أنكذبني عيوني؟ ماذا أسمع؟
أتصدقني آذاني؟ أهذا توقيع الملك؟ لا أصدق، هذا سحر، هذه طلاسمة! الملك يأمر
بخضوعي للمعتمد وأنا ملك هذه البلاد، يا خيبة الأمل بعدك يا فرديناند! آه ما أتعس
حظي! أماتت الملكة حتى صدر مثل هذا الأمر؟ حتى اقرتف الملك هذا الجرم، أمات
ستنجل؟ أتقلبت الأحوال، آه ما أشقاك يا كولومب! أهذا جزاؤك؟ أهذه المكافأة على
خدماتي العديدة؟!)

أي حجارة مملكة إسبانيا انطقي، أنا كولومب طفت الدنيا، تعرضت للأخطار والأهوال حتى أسست مملكة جديدة تخفق فوقها أعلام إسبانيا، أهذا يكون جزائي؟ تَبًّا لأحكام هذه الدنيا! لا عدل في هذا العالم، قد فعلت ما فعلت لمجدك أيها الإله الأعظم، فمنك وحدك أرجو الجزاء! إن ملوك هذا العالم دون عدلك يا ملك الملوك، أنت ينبوع العدالة يا الله، آه ما أحلى الموت قبل السقوط!

برتلماوس: أخي تجلد ولا تخف، فأنت ملك هذه البلدان.

كولومب: لا تاج ولا صولجان ولا ملك بعد الآن (ويسقط على الأرض).

برتلماوس: رباه ماذا جرى؟ أخي بحقك أخبرني.

كولومب (برباطة جأش):

يا من يرد إليّ ما فقدت يدي	هيهات ليس يُردُّ أمس إلى الغد
فقدت يدي طيب الحياة وهل تُرى	لي مطمع في الغابر المتجدد؟
قد خانني صحبي وأنصاري وما	قد عاد لي بين الورى من منجد
واليوم فردينان أصدر أمره	يقضي بطاعة أمر باغ معتد
قد كنت أُحسدُ سيدًا في ملكه	وغدوت أُحسد عبد عبد السيد!
رباه ما لي غير حلمك ناصرٌ	في الضيق فلتكمل مشيئة سيدي

(ثم ينهض متجلدًا ويقول لفرنسيس) إن مولاي الملك يأمرني بالخضوع لأوامرك يا حضرة المعتمد، أتريد أن تفحص عن تصرفاتي، فهات المدعين فأنا ماثل بين يديك.

فرنسيس: لا داعٍ ولا مدّعٍ، قد عرفت كل شيء يا كولومب.

كولومب: إذن أنا بين يديك فمر بما تشاء.

فرنسيس: باسم الملك فردينان أنا فرنسيس بوفاديليا، قد حكمت على كريستوف كولومب وأخويه بالإعدام جزاء خيانتهم.

كولومب: الإعدام؟! الإعدام جزاء أعمالي؟! هذا خير جزاء!

فرنسيس: جنودي كبلوا كولومب بالحديد (لا يقدم أحد) جنودي تقدموا (لا يقدم أحد) أتخافون هذا الرجل وهو خاضع مسلم؟ جنودي تقدموا (لا يقدم أحد) أساحرُ هذا الرجل؟ ما هذا؟!

(يتقدم خادم كولومب الخصوصي.)

الفصل الرابع

مرتين (خادم كولومب): هاتوا القيود لأكبله (ثم يأخذ القيود ويبدأ بتقييده).
كولومب: يوضاس سبقك إلى هذا العمل يا خادمي الأمين.
الجمهور: يغطون وجوههم، والخادم يقيد كولومب وبرتلماوس.
فرنسيس: أخرجوا هذين الخائنين إلى السجن حيث أخوهما الثالث، وهناك
ينتظرون ساعة الإعدام.

(يسدل الستار)

القسم الثاني

(يمثل الملعب سجناً مظلماً.)

المشهد الخامس

(كولومب ودياكو وبرتلماوس في السجن - دياكو وبرتلماوس نائمان)

كريستوف كولومب:

أَيُّ قلب نظير قلبي معذبٌ وعلى نار حزنه يتقلَّبُ
أنشب الدهر في فؤادي مخلبٌ فأراني برق السعادة خُلبُ
ما أمرَّ الحياة! طاب مماتي
أين مجدي والملك والتيجانُ؟ أين أين البرفير والصولجانُ؟
أين جندي بل أين فردينانُ؟ غدروا بي وكلهم قد خانوا
ما أمرَّ الحياة! طاب مماتي
لم يعد لي غير الشقا والسلاسل وعذابٌ ما إن له من مماثل
ظلموني وحكمهم غير عادل فكأنني لص أثيرم قاتل
ما أمرَّ الحياة! طاب مماتي
بعد ذاك العلا وسكني القصورِ بعد جوب الدنى وخوض البحورِ
بعدما كنت سيد المعمورِ بتُّ في السجن مثل مرءٍ حقيرِ

ما أمرّ الحياة! طاب مماتي
أيها السجن مدفن الأحياء رِقِّ وارحم تعاسة الأبرياء
يا قيودي ألا تجيبي ندائي خففي الوطء وارحمي أعضائي
ما أمرّ الحياة! طاب مماتي
إيه كولومب يا أمير البحارِ صاحب التاج فاتح الأقطارِ
لا يغرّنك الزمان حذارِ فاصطبر واحتمل قضاء الباري
ما أمرّ الحياة! طاب مماتي
إن قومًا خدمتهم ظلموني فوق شوك الهوان قد طرحوني
وبهذه القيود قد كبّلوني فلقيت العذاب بين السجون
ما أمرّ الحياة! طاب مماتي
أرى بعدُ وجه «إيزابلا» مثل بدر بين الدجى يتلألأى؟
ملكة لا تخيّب الآمالا آه يا رب قرّبنّ المجالا!
ما أمرّ الحياة! طاب مماتي
يا إلهي، أشفق على أخويًا وبعين الرضا انظرنّ إليّ
وغيوث الصبر اسكبنّ عليّ لم يعد لي من ذلك المجد شيئًا
ما أمرّ الحياة! طاب مماتي
إن شخص المنون بات أمامي آه من جور معشر الحكام!
أعلينا قضيت بالإعدام يا فرنسيس آه من ظلّامي!
ما أمرّ الحياة! طاب مماتي

(دياكو وبرتلموس يفيقان.)

(كولومب يغمى عليه ويسقط على وجهه.)

المشهد السادس

(المذكورون - السجنان - جوزف (صديق كولومب))

دياكو: أخي كولومب! كريستوف! استفق، لا تجزع.
كولومب (يرفع رأسه قائلاً): أنا لا أعرف الجزع يا دياكو، أنا لا أخشى الموت فقد استقبلته قبل الآن وتقت إليه، ولكنه لم يقترب مني، أنا أتألم من الظلم ويذيب قلبي نكران الجميل، أه من نظرة وداع إلى البلاد التي اكتشفتها، فتلك أعظم أمنية يطلبها هذا المظلوم.

برتلمائوس: أه ما أمر الموت! أنقضي غرباء عن الوطن؟! لا يسكب علينا محب دمة.

كولومب: سيندبنا التاريخ وتبكي الإنسانية جمعاء يا أخي وكفانا بذلك تعزية.
دياكو: التاريخ؟! ومن يصنع التاريخ غير الناس يا أخي؟!
كولومب: التاريخ يُخطُّ بإصبع العدل ومداد النزاهة، وكل تاريخ لم يكن كذلك يداس من الناس، التاريخ ينصف يا أخي والمرء يُعطى حقه تحت الثرى، أنا شديد الأمل بالتاريخ، وعلى هذا الأمل لا أخاف من الموت.

برتلمائوس: ولكن أهكذا جزاء الشهامة والإخلاص من الملوك؟!
كولومب: أتطلب العدل في كل حين، أتطلب الكمال من الناس؟! لا تطمع بذلك يا أخي، ولكن أشفق على الظالم فهو أولى بالشفقة من المظلوم.
السجان: ثلاثة عقبان من بيضة واحدة.

دياكو: قد اكتشفت طريقة ننجو بها.
كولومب: إنك تهينني يا أخي، أنا أهرب؟! كولومب يضع في تاريخه نقطة سوداء، لا، هذا لا يكون، لا تحدّث نفسك بهذا فيما بعد.
السجان: ما أكبر نفس هذا الشيخ، وما أعظم شهامته!

(يدخل جوزف.)

كولومب: لماذا أتيت في جنح الظلام؟ وهل سمح لك السجن؟
جوزف: أتيت لأعزيك في ضيقتك، وأشدد عزمك. (همساً) والسجان رشوته بالمال.
كولومب (يهز رأسه): لا، بل أتيت لوداعي قبل دنو الأجل قبل ساعة الإعدام، فشكرًا لولائك وإخلاصك يا جوزف.

جوزف: لا تخف فبينك وبين الموت مسافة بعيدة.
كولومب: نعم، ولكن يد الظالمين تقصر هذه المسافة.
جوزف: يعزُّ عليَّ أن أراك ساقطًا تحت أعباء الظلم والعدوان، يعزُّ عليَّ العدالة أن تضجَّ على مذابح الجور، وأنت قد أنقذت شعبًا عظيمًا من عبودية الهمجية.
كولومب: ذاك حظ الفضيلة في هذا العالم، ولكن ثق أنني إذا تمكنت من العود إلى إسبانيا فهناك تظهر براءتي أمام الملك. رباه قرَّب تلك الساعة، ولكن هيهات! فسيف الجلاذ أقرب (يغصُّ بالدموع) (إلى جوزف) اخرج فإنني أسمع وقع أقدام، آه أتت الساعة (يدخل فيليجو ويخرج جوزف) أقبل الجلاذ، دنا الإعدام.

المشهد السابع

(المذكورون - فيليجو)

كولومب: ألى الموت يا فيليجو؟
فيليجو: إلى إسبانيا يا مولاي.
كولومب: بربك أصدق ما تقول؟ عهدتك صادقًا يا فيليجو، قل الحقيقة، فأنا شجاع وقد تعودت مثل هذه المواقف.
فيليجو: قسماً برأس مهابتك يا مولاي سنسافر الآن إلى إسبانيا، السفينة مُعدَّة فتهيأ للذهاب.
أخواه: أصحيح ما يقول؟! رباه!
كولومب فلننهض:

عليك كل اعتماداي أيها الصمد ما خاب عبد على مولاه يعتمد

(يمشي ويجرُّ قيوده الثقيلة ويتبعه أخواه.)

الفصل الرابع

فيليجو: مولاي، أتسمح لي بحل هذه القيود؟
كولومب: لا يا فيليجو، قد تعودت طاعة أولياء أمري، بهذا يأمر معتمد الملك، وأنا خاضع لأمره في السر والعلن.
فيليجو: ناشدتك الله تسمح لي.

كولومب: لا أيها الصديق؛ فهذه القيود أعظم وسام نلته جزاء أتعابي، ومن لا يفتخر بالوسام؟! هذه القيود ستحفظ عندي كتذكار عظيم، وستوضع معي في اللحد لترافقني إلى الأبدية، سيروا بنا ولا تضيعوا الزمان، فالوقت قصير والزمان ثمين.

(يسدل الستار)

القسم الثالث

(في قصر الملك.)

المشهد الثامن

(الملك - ستنجل - بويال الكردينال - ألونزو)

الملك (إلى ستنجل): لم يرد اليوم شيء من معتمدنا فرنسيس في العالم الجديد.
ستنجل: لقد ذهب كغراب نوح ولم يعد.
الملك: إذن قد اتفق الاثنان عليّ، أم شبت نار الحسد بينهما فأدت إلى حرب طاحنة، ولكن لا؛ فكولومب لا يحب الدم.

بويال: وإذا كان ذلك فلماذا شنع الثمانية وحمل الإسبان أحمالاً ثقيلة؟
الملك: للضرورة أحكام، ومتى أمثل بناديننا نحاسبه عن كل شيء.
بويال: ولكن هيهات أن تراه يا مولاي، فهو يدعي الملكية ويطلب الاستقلال.
الملك: إلى أين يهرب؟ فلأنكّنّ به ولو كان في عرين الأسد.
بويال (على حدة): لقد نلت الغاية. (إلى الملك) وإذا جنّد يا مولاي عسكرياً من أولئك البرابرة فماذا تصنع؟

الملك: نملأ تلك البلاد بأساطيلنا وعساكرنا، ونصب عليها كرات المدافع، وإذا قضى الأمر فأنا أتولى قيادة الجيش بنفسى كما توليت قيادة جيش غرناطة.
بويال: جلالة مولاي قدير على كل شيء متى أراد.
الكردينال: لا نظن كولومب يعصى هذا العصيان، فهو يطيع الملك عن حب لا عن خوف، ولا إخاله إلا طائعا المعتمد بكل ما يقضى.
الونزو: ولكن قطع المخابرات مما يحمل على الريبة وترجيم الظنون.
ستنجل: قد أقبلت جلالة الملكة.
(تدخل الملكة.)

المشهد التاسع

(المذكورون - الملكة - أحد البحارة)

الملك: هل عرفت شيئا عن العالم الجديد عن كولومب؟
الملكة: لا يا سيدي، وهذه المسألة تقلق خاطري!
الملك: لقد كنا في غنى عن كل هذا أيتها الملكة لولا ...
الملكة: نعم أنا كنت السبب، ولم أندم على ما جرى؛ لأن ذلك أعظم فخر للمملكة، وينبوع ثروة غزير.
الملك: ولكن من الاكتشاف للآن لم يرد علينا ما يستحق الذكر.
ستنجل: البلاد غنية يا مولاي، فمعادن الذهب فيها لا تحصى.
الملك: وفي قلب الأرض معادن، ولكن من يكفل استخراجها؟
الملكة: التعب مشروط في كل عمل يا سيدي.
الملك: دعونا من هذا الحديث فهو كالأحلام المزعجة، ألم يزل يخشى من ثورة المسلمين ثانية، أم أخذوا إلى الهدوء والسكون؟
الونزو: الحالة الظاهرة مرضية، ولكني أظن كل هذا نارًا يغطيها رماد.

الفصل الرابع

حاجب: مولاي، بالباب بحري يطلب الدخول، وهو قادم من إسبانيولا.
الملك: من إسبانيولا؟ قل له يدخل. (إلى الحاشية) لا بد أنه يحمل إلينا الخبر الشافي عن مملكتنا الجديدة.

(يدخل.)

البحري: مولاتي، هذا كتاب أمرني كريستوف كولومب برفعه إلى نادي جلالتك.
الملكة: هاته (تقرؤه ويظهر على جبينها الكدر).
الملك: وماذا يحتوي؟
الملكة: تفضل واقرأ، ظلموك يا كولومب! (وتطرق برأسها).
الملك (بعدهما يقرأ): كريستوف كولومب مقيد بالسلاسل؟ هذا ظلم، هذا عدوان، ما أفضح هذه المعاملة!

الملكة: هذا بغي أيها الملك، إنها لمعاملة بربرية.
ستنجل: يا للجور والبهتان!
ألونزو: هذا عار على إسبانيا.
الكردينال: ما أقسى قلبك يا فرنسيس!
بويال (على حدة): هذا بعض ما يستحقه ذلك الخائن.
الملك: وهل صعد إلى البر مكبلاً؟
البحري: نعم مولاي، وقد حدثت في المدينة ثورة خواطر، واشمأز الجمهور من هذه المعاملة، وتصاعدت اللعنات إلى الجو.

الملكة: حسناً فعلوا؛ فهذا ما تأباه النفوس العالية.
الملك (إلى ستنجل): اكتب إلى رئيس السفينة، ومُرّه بحل قيود كولومب وأخويه، وأرسل مبلغاً من المال لينفق على الملابس اللائق بمقام كولومب وشقيقه.
البحري: مولاي، قد طلب إليه الضابط فيليجو أن يحل قيوده في البحر فأبى؛ لأن ذلك بأمر معتمد جلالتك وهو لا يعصي لكم أمراً.
الملك: ما أكرم هذا الرجل! عجل أيها الوزير وأصدر الأوامر كما قلت لك وحرر لكولومب أن يعجل بالحضور، ويبن له أسفنا الشديد على هذه المعاملة الجائرة.

(يخرج ستنجل ويتبعه البحري.)

كريستوف كولومب

المشهد العاشر

(المذكورون)

الملكة: لقد طُعن قلبي بسهم حاد من جراء المعاملة الجائرة.
الملك: سنسكب على قلب كولومب المجروح بلسم التعزية، وكفاه فخراً أننا صرحنا له بأنه مظلوم، وأن ذلك ساءنا أشد الاستياء.
الكريدينال: بارك الله بعدلك وحلمك يا مولاي.
الملك: ولكن لماذا فعل ذلك فرنسيس، لا ريب أن في الزوايا خبايا.
ألونزو: سيظهر كل شيء عند حضور كولومب.
الملكة: وا شوقي إلى مرآة، ووا أسفي على تعاسته!
بويال: لا تأسفي يا سيدتي، ومن هو هذا الرجل حتى يستحق أسف الملكات؟!
الملكة: اسكت فأنت عدو لئيم، بل سبب كل هذا، أما فرنسيس الماكر فسنريه.
الملك: لا تغضبي أيتها الملكة، لا تغضبي، فأنت أكبر من الوعيد، هدئي روعك ومُري بما تشائين، عن قريب سيأتي كولومب ولا نخرجه إلا حامداً شاكراً.
الملكة: شكراً لك يا مولاي.
(يدخل جندي.)

المشهد الحادي عشر

(الملك - الملكة - كولومب - جندي)

جندي: مولاي، قد أقبل كريستوف كولومب.
الملك: فليدخل (يخرج الجندي) انعمي بالأ فأقد أقبل ابنك.
الملكة: ولي الفخر يا مولاي.
يدخل كولومب ويركع أمام الملكة والملك، فتغص عيناها بالدموع، ويظل نحو دقيقة لا يتكلم، فتنهض الملكة عن عرشها، وتأمرة بالذهوض ثم تأخذ بيده قائلة:

الملكة: انهض يا كولومب، انهض أيها المجاهد العظيم.

(ينهض.)

الملك: اجلس عن يميني أيها المخلص الأمين!

كولومب: لا أجلس قبل أن تظهر براءتي أمام سيدي، فمر لي بالكلام.

الملك: لقد ظهرت لنا براءتك ولا حاجة إلى البرهان، ولكن تكلم.

كولومب: ظلّمت يا مولاي، ولكن الالتفات الملوكاني العظيم أنساني كل شيء، أنا

لم أفعل إلا كل ما به خير المملكة، خاطرت بحياتي، كدت أقتل من رفاقي، كدت أغرق،

تحملت الجوع والبرد، لم يبق خطر ولم أقع به، ومع ذلك لم أخرج عن دائرة الواجب،

حصّلت للمملكة شرفاً ومالاً وجاهاً؛ ولذلك يعزُّ عليّ أن أسلم إلى الحساد القساة ليفعلوا

بي ما يشاءون وتشاء أهواؤهم، إذا قضت عليّ الظروف أن أعامل الشعب بالقسوة فذاك

لأن القسوة واجبة، ولولا ذلك لم أثبت في تلك البلاد البربرية، فأين بوفاديليا وأين من

شكاني إليك؟ لماذا حكم عليّ بالإعدام؟ ولماذا لم يحاكمني؟ العدل العدل! لا أطلب غير

العدل، فإذا استحققت الموت، فأنا أقبله بكل طوع واختيار.

الملك: مهلاً فقد قضينا بإسقاط بوفاديليا جزاء خيانتها، وأنت لا تستحق عندنا غير

التجلة والإكرام، وكل ما وعدناك به من الإنعامات، نزيد عليها ما ستراه أيها الأميرال.

كولومب: مولاي، أعظم مكافأة أطلبها هي إرجاعي إلى مقامي.

الملك: إن مملكة إسبانيا بل العالم بأسره مدين لك يا كولومب، ولكن رجوعك الآن

لا يوافق؛ لأنك تعبت وصحتك لا تساعدك على ذلك.

كولومب: أنا رجل أحب أن أموت في ساحة الجهاد يا مولاي.

الملك: ولكن الآن لا يناسب رجوعك إلى ما كنت عليه بسبب القلق السائد في تلك

البلاد، ولكن متى نسيت تلك الحوادث تعود إلى رتبك ومقامك، والآن فقد أمرنا بإرسال

أوفاندو حاكمًا إلى تلك البلاد، وتجهيز ثلاثين سفينة لسفره.

كولومب (على حدة): ما أشقاني! يا لتعاسة حظي! ليس بهذا يقضي العدل،

(إلى الملك) ولكن أنسيت يا مولاي أن هذا من حقوقي بموجب الشروط التي وقعتها

جلالتكم في سنتنا؟ فعاملني بموجب الشروط وأنصف يا جلالة الملك.

كريستوف كولومب

الملك: إن الإنصاف الآن وخيم العاقبة، فعد عن هذا الطلب.
كولومب: وا خيبة الأمل! (يفكر قليلاً) مولاي، إذن لا أمل بالعود.
الملك: كلا أيها الأميرال.

كولومب: يقنعني بهذا اللقب، إذن مر لي ببضع سفن لأكتشف طريقاً جديدة أعلل النفس بها بين جزيرة كوبا والأرض التي اكتشفتها.
الملك: سنأمر لك بذلك، فطب نفساً وقرّ عيناً.
كولومب (على حدة):

هذي مكافأتي العظمى على تعبي تباً لكولومب منكوداً وأي شقي
إني رضيت بما جاد المليك به

جندي:

من فاتهُ اللحم فليشبع من المرقِ

(يرخى الستار)

الفصل الخامس

القسم الأول

(يظهر الملعب بهيئة مقبرة وعلى قبر الملكة إكليل.)

المشهد الأول

(جنديان)

أول جندي: لقد طال غياب جلالة الملك في حديقة المقبرة.
ثاني جندي: نعم، فمحبته للملكة كانت عظيمة، ولقد كان موتها مجلبة أحزان وكدر، فهو لا تصفو له ساعة ولم يعد يطيق ترداد اسمها على مسامع جلالته.
أول: ما أجمل هذا الإكليل الذي وضعه اليوم على قبرها! إن مشهد الموت لمؤثر.
ثان: وأشد تأثيراً منه ركوع ملك عظيم فوق قبر منفرداً، إن سلطان الموت لأعظم من كل سلطان.

أول: دعنا يا أخي من حديث المقابر وأهل القبور.
ثان: وبماذا تريد أن نتحدث؟
أول: حدثني عن كولومب، فقد سمعت أن أخاه برتلماوس جاء أمس يطالب بحقوقه، ويسأل جلالة الملك القيام بالعهد.

ثان: ولكن ألم تعلم أن جلالة الملك طرد برتلمائوس، وقال له: إن قيامي بما وعدت يهدم أركان مملكتي، ويحمل الإسبان على الخروج.

أول: ولم ذلك؟

ثان: ذلك لأن الأهلين هناك يكرهون جدًّا كولومب وأخويه.

أول: ولماذا لم يحضر كولومب بنفسه؟

ثان: إن كولومب في أشد الخطر، وقد ثقلت عليه وطأة المرض، وهو في مدينة سافيليا، فسفرته الأخيرة إلى الجماييك كانت ويلات ومصائب، وقد قذفته الأنواء إلى العالم الجديد فعامله حاكمه أوفاندو معاملة سيئة، وتكسرت مراكبه ولم يبق معه غير سفينة واحدة، جاء بها إلى سان لوكار ميناء الأندلس، بعدما قاسى أشد الاضطهاد.

أول: مسكين هذا الرجل فإنه يسير والمصائب جنبًا لجنب!

ثان: أتظن الملك يجيب طلبه؟

أول: لا، لا، هذا لا يكون.

ثان: إذن خرج برتلمائوس غاضبًا ساخطًا.

أول: وسيعود كولومب أيضًا مثله، فقد بلغنا أنه بعد شفائه سيحضر لقيام الدعوى، ويطالب بحقوقه رسميًا.

ثان: ومن يطالب؟ أيكون الملك المحاكم والحكم ويأمل كولومب بنجاح دعواه؟! (يهز برأسه) لا تعاند من إذا قال فعل يا أخي.

أول: مسكين كولومب! لقد كانت الملكة تعضده ولكنها ماتت، وبموتها موت كل آمال كولومب.

ثان: أبلغه موت الملكة يا ترى؟

أول: لا ريب، فالملكة ليست برجل حامل الذكر، حتى لا يشيع خبر موتها.

ثان: أصبت فيما تقول، ولكن لا بد أن يحضر.

أول: إذا لم يموت، أنسيت أنك قلت لي إنه مريض.

ثان: أنا أنسى، فالكذاب يلزم أن يكون قوي الذاكرة، وقد مارسنا هذه الصنعة في قصر مولانا الملك؛ لأن الظروف تقضي علينا بالكذب غالبًا، والملوك لا ترضيهم الحقيقة كل حين.

أول: دع هذه المجون، أنسيت أننا في مقام الجد؟
ثان: خلّ السياسة لأصحابها، فإنها تشغل الفكر ولا فائدة نجتنيها منها، فالمجون أحرى بنا وأولى.
أول: مهلاً، اجلس الجلوس العسكري، أسمع وقع أقدام، أظن الملك مقبلاً.
(يجلس الجنديان على السلاح.)

المشهد الثاني

(كولومب - الجنديان)

ثان: لا، هذا كولومب المسكين.

(يدخل كولومب ويرتمي على القبر.)

كولومب: هنا على هذا الضريح على قبر الملكة إيزابل يجب أن تموت يا كولومب، على هذا اللحد يجب أن تسكب الدموع، وعلى أحد جانبيه أن ترقد رقاداً أبدياً جزء معرفة الجميل، شلت يمينك أيها الموت، كيف قوّضت أركان ذلك الهيكل الشريف رمز العفاف والطهارة؟! أه ما أقوى شوكتك! فإنك لا تخاف العروش ولا تهاب الجنود! أصم أبكم لا تشفق ولا ترحم، أيها القبر، انطق، تكلم، خبرني عن فناء هذه الدنيا، وحدثني كيف تعامل الملوك؟ أه إنه لا يجيب!

إيزابل سيدتي، أجيبي عبدك الواقف ينتظر الجواب، ما هذا السكوت؟ عهدتك لا تسكتين عن جوابي! قد كدت ترهنين تاجك حباً بي، أتبخلين عليّ بكلمة في هذا الموقف الأخير، إيزابل أنا راعع على الحصى فأنهضيني كما أنهضتني الأمس عن البسط الحريرية، أين تلك اليد الناعمة؟ أه قد أكلها الدود! (يغص بالبكاء) تكلمي يا مليكتي، عهدتك طليقة اللسان، أه أخرسها الموت! يا ملكة كستيليا نظرة واحدة إلى كولومب، نظرة واحدة تحييني يا إيزابل، قومي انظري ظلم فردينان.

أول: ويحه، اسمع ما يقول!

(يشير الثاني بالسكوت.)

كولومب: قومي انظري كيف يخلف الملوك الوعود! انهضي وانتقمي بعدك من الظلم، وأنقذي كولومب من مخالب المستبدين ... ما تراني أضع على قبرك! إكليلاً جميلاً؟ أتمثالاً من الذهب الذي اغتنمناه من العالم الجديد؟ وا أسفاه لا أملك شيئاً من ذلك، ولكن بقي لي واحد وهو هذا الصليب الذي رافقني في كل أسفاري، فها أنا أضعه تذكراً على قبرك ليؤنسك في وحشة الليل، فاقبله مني يا ولية نعمتي، أيها الضريح، أشفق عليها فقد كانت مصدر الشفقة والرحمة، ويا ملائكة السماء احرسى جثمانها؛ فقد كانت ملاكاً بصورة إنسان، لقد عاد كولومب يا إيزابل فقومي بحقك وانظريه، ولكن هيهات!

(نشيد):

سلامٌ على مثنوى الطهارة والمجد
فيا ليتني قد كنت في ذلك اللحد
فلما توارت غاب مع نورها مجدي
وقد كان يشكو أمس من حملة العقد
وكان وطيذ الركن من قبل ذا الفقد
فيا ليتني قد غبت قبلك في لحدي
سلامٌ على الدنيا سلام على الهند
وهل يُرتجى الإصلاح من فاقد الرشد؟
أسيدتي رفقاً وعطفاً على العبد!
فقومي انظريه اليوم يخلف بالوعد
وويله من ملك غدا ناكث العهد!
فيا رب صبرني على لوعة البعد!
تُرى نلتقي من بعد هجرٍ ومن بعد؟
على رغم أنف الدهر في جنة الخلد

سلامٌ على قبر به الفضل والتقى
سلامٌ على لحدٍ به العدل نائم
سلامٌ على شمس المكارم والعلى
سلامٌ على جيدٍ هوى فوقه الثرى
سلامٌ على عرشٍ هوى بعد فقدها
سلامٌ على كولومب من بعد أمه
سلامٌ على الدنيا الجديدة بعدها
فلا أملٌ أرجوه من بعد فقدها
«إيزابل» رقي وارحمي ضعف هائم
«إيزابل» فردينان زوجك ظالم
«إيزابل» فردينان خان عهوده
مليكة قلبي، إن بُعدك قاتلي
تُرى نلتقي من بعد بُعدٍ وجفوة
وداعاً إلى حينٍ وإننا سنلتقي

والآن فاسمحي لي أن أقبلُ ثرى ضريحك قبلة الوداع، على أمل اللقاء في عالم الأبدية.

(يظهر الملك قادمًا من وراء القبر.)

المشهد الثالث

(الملك - كولومب - الجنديان)

الملك: ما هذا النواح؟ ما هذا العويل؟ ومن دخل المقبرة يا أوفاندو؟
أول جندي: كريستوف كولومب يبكي على قبر الملكة.
الملك: أجاأ يزعجها في مماتها كما أزعجها في حياتها؟ إن مطالبه كثيرة، فما جاء يطلب؟ آه من هذه المطالب!
كولومب: أطلب العدل والإنصاف أيها المولى.
الملك: وممن تريد أن ننصفك يا كولومب؟
كولومب: من الملك فرديناند.
الملك: وماذا تطلب منه؟
كولومب: القيام بالعهود وإعطاء كل ذي حق حقه.
الملك: قل أيُّ حق لك؟
كولومب: لا إخالك تجهل، وهل تنكر إمضاك؟
الملك: يريد أن يعاملنا قانونيًّا، على رسلك أيها الرجل.
كولومب: واعدل أيها الملك العظيم.
الملك: أنا عادل ولكن عين الطمع حديدة البصر.
كولومب: لقد أرسلت أخي برتلموس وطررتموه فأتيت بنفسي لأطلب حقي فماذا تجيب يا مولاي؟
الملك: نجيبك كما أجبنا أخاك، أنا هو المملكة، ولنا أن نفعل ما نشاء.
كولومب: ليس على الظالم من حرج (على حدة) صرّح، لم أفهم شيئًا.
الملك: لا حق لك علينا، وإذا جدنا عليك بشيء فذلك من حلمنا.
كولومب: أطلب عدلاً لا رحمة، اذكر وعودك أيها الملك شفاهاً وخطاً، اذكر هذه الشروط (ويظهرها) إن التاريخ يحكم عليك بها.

الملك: أنا في مأمن حكومة التاريخ، إن حكمها لي لا عليّ.
كولومب: التاريخ لا يرتشي، فرديناند، أستحلفك بهذا الضريح، أستحلفك بعظام إيزابلا، أستحلفك بهذه الرائدة رقادًا هادئًا، أنصفني.
الملك (يغطي وجهه بيديه): لا توقظها أيها الرجل، لا تزعج عظامها.
كولومب: إن روحها تطل علينا من فراديس الجنان، فلا تدعها تغضب.
الملك: لا تلفظ اسمها فيما بعد، لقد قدتها إلى القبر بمطالبيك المزعجة، فلا تلحقها إلى الأبدية.

كولومب: مظالم قادتها إلى الموت!

(جندي يستل سيفًا ليضرب به كولومب.)

الملك: احذر أيها الجندي، مكانك، أليس من العار أن ننتقم من المجانين؟
كولومب: مجنون لأنني أرجو عدلك؟
الملك: اذهب أيها الرجل، اذهب أنا أسامحك، وإن كنت قد أهنت الملوك.
كولومب: أسامح الظالم المظلوم؟! هذا أمر غريب، أنا أسامحك أيها الملك؛ لأنني أحس بدنو الأجل، أسامحك لأنني سأغادر هذا العالم، ومن يترك هذا العالم يصفح عن كل آثامه.

الملك: إذن لماذا تطالب بهذه الحدة والعنف؟
كولومب: أطالب لئلا يقال مات كولومب ولم ينصفه الملك، أحاول أن أمحو بهذا الطلب نقطة سوداء في تاريخ حياتك، ولكن يظهر أنك لا تريد.
الملك: لا، لا أريد (يهم بالخروج).
كولومب: كلمة واحدة يا فردينان.
الملك: لا كلمة ولا كلمتان.

(يخرج الجميع إلا كولومب.)

المشهد الرابع

كولومب (وحده):

هذا جزء «سِنِمَار» ظفرت به
سيأخذ الله ثأري وهو لي عضد
عدلاً ملوك الورى فالله يرمقكم
لا تجزعوا يا بني الدنيا لمظلمة
لم يرشفونا كئُوس الظلم مترعة
لكم بما ذقته يا إخوتي مثلٌ
من المليك فأين العدل يا بشر؟!
ومن عدالته يا ويل من غدروا!
عن عرشه وهو للمظلوم ينتصر
جاء الملوك بها يوماً بل اصطبروا
إلا وفي كأس ذاك الظلم قد سكروا
الله أكبر وهو الفوز والوطر

آه من الجور! آه من الظلم! من لي بأن تكوني ناظرة يا إيزابلا شقاء كولومب، يا ليتك بقيت حية لتشاهدي آخر مشهد من رواية حياتي المحزنة، آه إنني أحس بارتخاء في مفاصلي، ستعاودني نوبة المرض، إنني أشعر بدنو الأجل، بقرب الاجتماع بالملكة إيزابيل بين الملأ الأعلى، حيث الحق والنور، حيث العدل والرحمة، فهناك لا ظلم ولا خيانة ولا غدر، آه من ناس هذا العالم فأكثرهم خونة ناكرو الجميل ... ما هذا الضعف ما هذا الدوار؟! ساعدني يا الله لأصل إلى فراشي ولا أحتاج إلى أحد ينقلني إليه، فأنا مسكين لا نصير لي.

من لي بأن أراك يا ولدي المحبوب؛ لأودعك وأوصيك لتخط على قبري مات مظلوماً، قرَّب الله الساعة التي أقول بها على فراش الموت: سامحك الله يا فردينان، واغفر يا رب لمن أساء وأخطأ إليّ.

(ستار)

كريستوف كولومب

القسم الثاني

(يمثل الملعب غرفة نوم والملك راقد في سريره.)

المشهد الخامس

(الملك - الأشباح)

الشبح: فردينان، فردينان، انهض.

فردينان (يتحرك في فراشه بين النائم والمستيقظ): ما أطول الليل!

الشبح: نعم، ليل الظالمين طويل، استفق يا فردينان.

فردينان: ربّاه! أسمع صوتًا، من يجسر على إقلاق الملك؟!

الشبح: الحقيقة فوق كل ملك، العدالة أكبر من كل سلطان، استيقظ يا فردينان.

فردينان: تبدي أيتها الأحلام، تفرقي أيتها التصورات المزعجة.

الشبح: فردينان، ويك من يوم الحساب! فردينان، أنت ظالم!

فردينان: من هو هذا الوقح؟

الشبح: هذا أنا يا ظالم.

فردينان: ماذا أرى؟ ماذا أنظر؟ ما هذا الشبح؟ جنودي!

الشبح: اسمع لأناقتك الحساب، فأنا لست من هذا العالم، أنا روح، وهيهات أن

تقوى الجبله الترايبية على الأرواح!

فردينان (بصوت مرتجف): ماذا تريد؟ قل ولا تعذبني.

الشبح: العدل، القيام بالعهود.

الشبحان: العدل، العدل.

فردينان: إنه يخيفني، عجبًا! أنا فردينان لا أخاف الجيوش الجرارة، كيف أخاف

الظل؟ أين أنت أيها السيف؟ (يمد يده إلى سيفه).

الشبح: خلّ عنك السيف، فلست من لحم ودم.

(يقع السيف من يده ويرتجف.)

الفصل الخامس

فردينان: قل من أنت؟ ولا تطل عذابي أيها الخيال، قل ما تريد.
الشبح: أريد إنصاف كولومب، أريد القيام بالعهود.
فردينان: يا رب، بقيت الأرواح لم تطالب بحقوقه، وها قد أتت الآن فما أصنع؟ قل من أنت أيها الشبح؟
الشبح: هذا لا يعنك، فقم بعهودك يا رجل.
فردينان: ناشدتك الله، قل من أنت أيها الخيال وأنا لا أخيب لك طلبًا.
الشبح: أنا ملكة كستيليا، أنا روح إيزابل، ثم يتوارى الشبح ويتبعه الشبحان.
فردينان (ينهض الملك مذعورًا وينير المصباح ويضرب الجرس): ما هذا الليل المزعج؟ يا الله! (يدخل أوفاندو) قل للوزراء والحاشية أن يعجلوا بالحضور.

المشهد السادس

(الملك - ستنجل - ألونزو - الكردينال - وزير - جندي)

فردينان: يا رب ألا يفارقني ظل كولومب أين سرت؟! أأرسل الله هذا الرجل حتى يعذبني ويكدر صفاء عيشتي؟! ما أنكد حظي! أجل، لا راحة لي إلا بإنصاف الرجل، فلننصفه ونرتاح من كل هذا العذاب (يدخل الوزراء) لقد دعوتكم لنتباحث في أمر كولومب.

ستنجل: ماذا جرى؟ خير إن شاء الله.
فردينان: ظهرت لي في هذا الليل روح إيزابل تقضي بإنصاف كولومب.
ألونزو: ما هذه الأوهام يا مولاي؟!
فردينان: ويحك قد رأيتها بأمر عيني وأرعدت فرائصي بكلامها الجريء ومنظرها الهائل، والآن عزمت على إعطاء الرجل حقه.
ألونزو: أنسيت يا مولاي تقريعه لك وغضبك عليه؟ أليق بالملك أن تعود عن أقوالها؟!
فردينان: ويلاه! ما هذه الحيرة؟!

الكردينال: وأي حيرة يا مولاي؟

فردينان: من هذا الرجل.

الكردينال: لا داعي للحيرة، ولك أن تسمع نداء الضمير.

فردينان: نعم يا نيافة الكردينال، سنعيد الرجل إلى مقامه، وإذا عاد أحد العامة عن غلظه يعدُّون له ذلك فخراً عظيماً، فكيف لو عاد الملك؟ لنعلِّم الشعب أمثلة جديدة بعودنا عن خطئنا.

الكردينال: بارك الله فيك يا مولاي، إنك بذلك ترضي الله.

فردينان: اخرج أيها الحاجب، وعجّل بحضور كولومب إلى هذا النادي.

ألونزو: هذا لا يليق يا مولاي.

فردينان: عجل أيها الحاجب، عجل فلا مرد لأوامرنا.

(يخرج الحاجب.)

المشهد السابع

(المذكورون - دياكو كولومب)

فردينان: يا نيافة الكردينال، أيها الوزراء والأمراء:

إذا فعلنا هذا الأمر فإنما نحن مشيئة الله، ومنتصر للعدل، ونمحو الظلم الذي فعلناه عن غير عمد. إن الملوك يقترفون المظالم أحياناً وهم يحسبون أنهم يفعلون العدل ويلبُّون أوامر الشريعة، فمثل هؤلاء يجب ألا نسميهم ظالمين؛ لأنهم لم يبنوا حكمهم إلا على ما اتصل بهم، فاعذروني إذا كنت ظلمت كولومب، وها أنا أطلب المغفرة من التاريخ.

(يدخل الحاجب.)

الحاجب: مولاي، صان الله مملكة إسبانيا من كل داهية، وحفظ جلالة ملكها

الأعظم (ويقدم الرسالة).

فردينان (بعدما يقرأ الرسالة): أنعى إليكم أيها الوزراء كريستوف كولومب المكتشف العظيم، مات ولكن آثاره لم تمت، قضي ويا لهف نفسي عليه! فقد عاش عظيمًا ومات عظيمًا، مات مكسور خاطر وليته عاش إلى هذه الساعة لكان فارق الحياة قرير العين عزيزًا كريمًا، ولكن لله في خلقه شئون، سر يا كولومب بأمان إلى العرش السموي، واصفح عن سيئات هذا العرش الترابي؛ لأنه لم ينصفك لأنك مت مظلومًا، وأنت يا روحه الطاهرة فسيري على أجنحة الملائكة، وارقدي في حضن إبراهيم في عالم الحق والنور، في عالم الحياة الأبدية، تراثك يا كولومب مآثرك الغراء وتبكيك أياديك البيضاء، وتنوح عليك الإنسانية جمعاء، فقد كنت لها أعظم نصير، تندبك البلدان التي افتتحتها، ويرثيك العالم الجديد الذي أطلعت في سمائه بدور المدنية وشموس الدين الساطعة، تؤبئك إسبانيا وتقر فوق قبرك بفضلك العظيم، فقد خلدت لها في التاريخ ذكرًا لا يمحي، يندبك فردينان ملك إسبانيا ويكفر عن إثمك إليك بهذه الدموع، لقد مت حانقًا علي يا كولومب ولا يبعد أن تكون أمطرت علي صواعق اللعنات، ولكن لا، فأنت مسيحي حقيقي تصفح عن أساء إليك، فسر بسلام إلى ملكوت الله حيث تجتمع على مائدة الأبرار والصديقين بمليكتك إيزابل.

ألونزو: مولاي، ما هذا الانفعال!؟

فردينان: اسكت فالرجل يستحق أعظم من هذا، والآن بما تراني أكفر عن ذنبي يا ترى؟ (يفتكر ثم يقول) الآن قد اهتديت إلى طريقة أمحو بها ما سبق من الذنوب، سأقيم ابن كولومب مقام أبيه كما آليت على نفسي في الشروط.

(جندي من الخارج يدخل.)

الجندي: مولاي، على الباب رجل يلبس الحداد يطلب المثل بناديك.

فردينان: قل له يدخل، من هو هذا يا ترى؟ (يلتفت الملك فيراه ويقول له): تعال يا ابن الأميرال، تعال يا ابن كولومب الشهيد، فقد أرسلتك العناية الإلهية في أوانك، نحن في حاجة إليك.

دياكو: وأي حاجة يا مولاي!؟

كريستوف كولومب

فردينان: حاجة عظمى، وهي أن نقيمك خلفاً لأبيك.

دياكو: شكرًا لك يا مولاي (يركع).

فردينان: انهض فأنت منذ الآن حاكم البلاد التي اكتشفها أبوك، ولك كل ما عاهدناه عليه، لا تشكرني فأنا أكفّر عما أخطأت به ضد أبيك، وها أنا أسأل روحه في السماء أن تغفر لي، وأنتم أيها الوزراء فجهّزوا المعدات لسفر هذا الشاب وقولوا: لتحيّ عظام كولومب.

الجميع: فلتحيّ عظام كولومب.

الملك: وأنا أقول قولاً سترده بعدي الأجيال والأعصار:

لو كنتُ أقدر أن أعاقبَ أبحرًا	قاسى بها «كولمبس» الأهوالا
لنزعت منها دُرّها وجعلته	فوق الضريح لمجده تمثالا